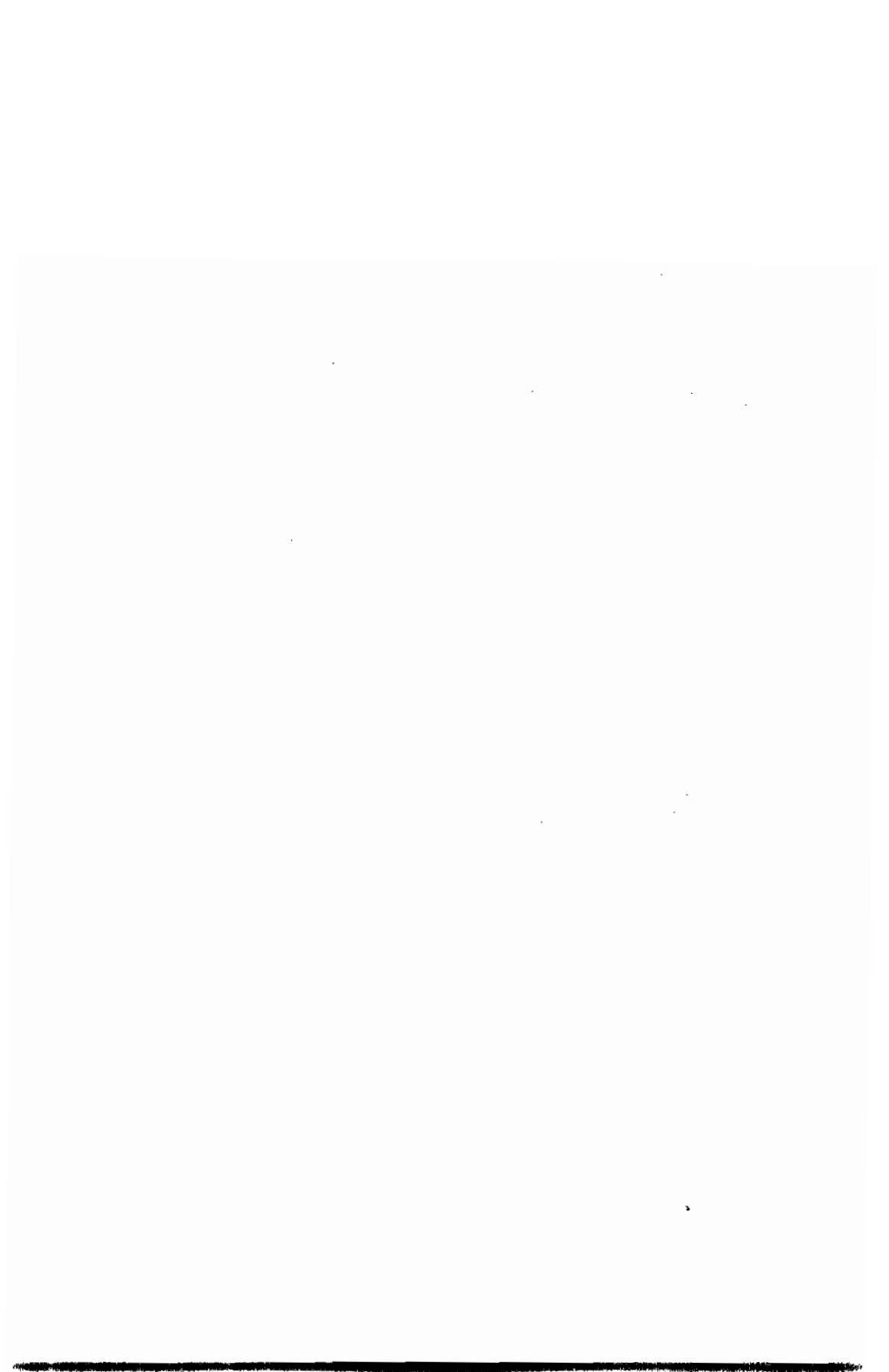


التفريق الدلالي بين البخل والشح فى ضوء النظم القرآنى

أ.د/ على محمد حميد حماد

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالزقازيق



المقدمة

الحمد لله بما حمد به نفسه في كتابه، والصلاة والسلام على

سيدنا محمد وآله، وبعد:

فمن رحمة الله سبحانه وكرمه على عباده أن يسر القرآن الكريم للذكر، ودعاهم لتدبر القرآن العظيم، حتى تتكشف لهم أسرارهِ وتظهر لهم أنوارهِ التي تضيء لهم الصراط المستقيم ليواصلوا السير فيه بقلوب سليمة وجوارح مستقيمة وعقول واعية.

ومما لا شك فيه أن "هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ....." [الإسراء: ٩] فهو يدل كل من تدبره على ما فيه من أغراض ومقاصد وأسرار لا يهتدى إليها من كان بعيداً عنه.

وهذه الحقيقة قد تحققت معي كما تحققت مع كل من كتبوا أو بحثوا في علم ما من علوم هذا القرآن العظيم، فقد دلني القرآن الكريم على بعض القضايا والمقاصد التي تدعوني إلى البحث عما فيها من أسرار، وتحقق ذلك بفضل الله وكرمه في بحث الدكتوراه وغيره من البحوث التي كتبتها في البلاغة القرآنية.

وهذا البحث الذي نعيش معه الآن "التفريق الدلالي بين البخل والشح في ضوء النظم القرآني" وقعت فكرته في نفسي منذ سنوات هداني إليه إحساس عجيب دعاني إلى طول تأمل وأنا أقرا قوله تعالى: (.. وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: ٩] فقد وجدت لكل كلمة في هذه الآية مذاقاً خاصاً أحسه القلب والعقل والضمير.

ووجدت نفسى أكرر قراءة الآية ومع كل مرة أقرأها فيها أتأمل جانباً معيناً من نظمها المعجز، فهناك الإشارة إليهم بالبعد "أولئك" ثم قصر الفلاح عليهم بتعريف المسند "المفلحون" ثم المجئ بضمير الفصل "هم" فى نظم الآية.

ومرة ثانية أتأمل بناء الفعل "يوق" للمفعول ووقوعه على الشح دون غيره ثم إضافة الشح إلى النفس مع إضافة النفس إلى الضمير.

ومرة ثالثة أتأمل مجئ الآية على طريقة الشرط ومجئ جواب الشرط جملة اسمية دون الفعلية مثل "يفلح" وغيرها.

وعلمت أن "الشح" مشكلة نفسية، من وقع فيها هلك ومن نجى منها فاز وفلح، فأردت أن أتعرف على معنى الشح، والفرق بينه وبين البخل، وأيهما أخطر وما العلاقة بينهما.

وبدأت منذ ذلك الوقت أقرأ فى دلالة البخل ودلالة الشح والفرق بينهما ثم حصرت موافعهما فى القرآن الكريم، وقرأت ما كتبه أئمة اللغة والتفسير فى ذلك ثم اطمأن قلبى إلى إمكان السير فى هذا الطريق وأهمية دراسة هذا الموضوع، لأنه يبزر جانباً من جوانب الإعجاز القرآنى، وهو ما يتعلق باللفظة القرآنية وخصوصية دلالتها فى سياقها وسر اختيار كلمة دون أخرى، ثم طريقة نظم الكلمة فى أسلوب أعجز الأئس والجن مجتمعين.

ودراسة الكلمة القرآنية فى سياقها ومقامها يكشف عن فروق دلالية دقيقة بين ألفاظ اللغة العربية ويظهر عظمة هذا القرآن فى تخير ألفاظه.

وهذا النوع من البحوث القرآنية لم يأخذ حفظه من الشهرة فيما يكتبه علماء المسلمين، وهو من البحوث الشريفة التي تظهر فقه اللغة وفقة الشريعة.

وقد سبق أن كتبت بحثاً في الفرق بين "الخلف" و"الوراء" في القرآن الكريم وتبين أن هناك خصوصيات في كل كلمة تميزها عن غيرها كالخصوصيات التي تقع في بصمات البشر فتميزهم.

واتضح أن كثيراً من علماء اللغة والتفسير قد يتسامحون فيفسرون الكلمة بغيرها فيقولون مثلاً: "الخلف" هو "الوراء" ثم يقولون في موضع آخر: "الوراء" هو "الخلف" ثم يقولون: "الشح" هو "البخل" إلى غير ذلك مما يتساهلون فيه وهذا إن صح في تقريب المعنى في لغة البشر فلا يصح عند دراسة كلام الله، لأن لكل كلمة دلالة خاصة لا تقوم بها غيرها^(١).

وهذا البحث "التفريق الدلالي" بين البخل والشح في ضوء النظم القرآني" جاء في مقدمه وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

ذكرت في مقدمه دوافع اختيار الموضوع وأهميته، ومنهج البحث. واشتمل التمهيد على حصر مواقع البخل والشح في القرآن الكريم وبيان معنى كل منهما والفرق الدلالية بينهما.

وجاء المبحث الأول بعنوان: خصائص النظم القرآني في مواقع البخل.

ثم جاء المبحث الثاني بعنوان: خصائص النظم القرآني في مواقع الشح.

ثم جاءت الخاتمة مشتملة على أهم ما توصل إليه البحث.

(١) يراجع بحث الفروق الدقيقة بين مقامات الخلف والوراء في النظم القرآني للباحث في العدد الثالث والعشرين من حويله كلية اللغة العربية بالزقازيق عام ٢٠٠٣م.

وسررت على المنهج التحليلي الذي يراعى جوانب النظم البلاغى ويعتمد على السياق والمقام، لأنه يبرز سر اختيار كلمة بذاتها دون غيرها، ويبرز فى الوقت ذاته علاقة الكلمة بالسياق والمقام الذى وردت فيه وعلاقتها بالسورة كاملة سواء أكانت مكية أم مدنية.

والله نسأل أن يرزقنا سلامة القلوب وصلاح العقول حتى نصير أعمالنا إلى رضاه. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د/ على محمد حميد حماد
أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد
فى كلية اللغة العربية بالزقازيق

التمهيد

ذكر الحق سبحانه "البخل"، و"الشح" في مواقع محددة في القرآن الكريم، وقد ارتبط كل لفظ بسياقه ومقامه ارتباطاً عجيباً، وكان من دقة القرآن المتناهية وبلاغته العالية، أن يرد اللفظان في القرآن المدنى خاصة ووراء كل ذلك أسرار يجب أن يقف عليها الباحث حتى يدرك شيئاً مما يجب عليه من معرفة بلاغة هذا القرآن العظيم.

وسوف أحاول في هذا البحث المبارك أن أتعرف على خصوصية الكلمة في سياقها ومقامها وسر اختيارها في موقعها الذي وردت فيه، وكيف تعاونت هذه اللفظة مع أخواتها حتى انجلى المعنى وارتقى البيان. وإنى لأدرك تقصيري، وتدنى درجتي، وقلة همتي أمام بلاغة كتاب أعجز الإله والجن مجتمعين ولكنني استمد العون من الله على فهم كلامه سبحانه، وأتذكر كلاماً طيباً قرأته قديماً للإمام الشافعى طيب الله ثراه وأضعه الآن أمام عيني وفي قلبي وفي عقلي، لأننى أشعر أنه يخاطب وجدان الإنسان حين ينجو من نزغات الشيطان ويرغب فى عون المنان.

يقول الشافعى "فكل ما أنزل فى كتابه - جل ثناؤه - رحمة وحجة، علمه من علمه، وجهله من جهله، لا يعلم من جهله ولا يجهل من علمه. والناس فى العلم طبقات موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فى العلم به، فَحَقَّ عَلَى طَلِبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جَهْدِهِمْ فى الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله فى استدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله فى العون عليه، فإنه لا يدرك

خير إلا بعونه" (٢). رحم الله الشافعي ورزقنا إخلاص النية والرغبة إلى الله
فى العون على علوم كتابه.

ونبدأ بعون الله فى حصر مواقع "البخل" و"الشح" فى القرآن
الكريم:

أولاً: مواقع "البخل"

وردت مادة "بخل" اثنتا عشر مرة فى القرآن الكريم وجاءت
مختلفة الصيغة، فقد وردت اسماً معرباً "بأل" فى موضعين ووردت فعلاً
ماضياً فى ثلاثة مواضع، ووردت فعلاً مضارعاً فى سبعة مواضع
وبيانها كما يأتى:

١ - قال الله تعالى "وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ
مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [آل
عمران: ١٨٠]

٢ - وقال سبحانه "الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا" [النساء: ٣٧].
٣ - وقال سبحانه: "فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ
مُغْرَضُونَ" [التوبة: ٧٦]

٤ - وقال سبحانه "إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ،
هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ

(٢) الرسالة للشافعي ص ١٩ تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط، دار الكتب العلمية.

يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ" [محمد ٣٧، ٣٨]

هـ - وقال سبحانه "وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَبَ
بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى" [الليل: ٨، ٩، ١٠]

مناسبة ذكر البخل للقرآن المدني:

يلاحظ الباحث أن جميع المواقع التي ذكر فيها "البخل" وردت في
السور المدنية إلا موقع سورة الليل^(٣).

ووقع "البخل" في السور المدنية جاء متناسباً مع كثرة المال
الذي أنعم الله به على المسلمين بعد الهجرة فحذرهم سبحانه من أن
يركضوا إلى الدنيا وينشغلوا بالمال وينسوا الآخرة. وحثهم على انفاق
المال في الجهاد في سبيل الله، ولم يرد في القرآن المكي، لأن المسلمين
كانوا قليلي العدد ولم تكن هناك حاجة ملحة لإنفاق المال بقدر الحاجة
الملحة لفهم العقيدة والدعوة إلى الإيمان.

أما موقع سورة الليل فيبدو من ظاهر أسباب النزول أنه ورد في
شخص معين قصده القرآن، وكان ثرياً ومع ثرائه جمع كل الصفات
السنية التي جعلته أهلاً للعسرى، فأراد الله أن يجعله عبرة لأمثاله،

(٣) يرى جمهور المفسرين أن سورة الليل مكية وهناك من ذكر أنها مدنية وهناك من
فصل فقال فيها مكي وفيها مدني. يراجع تفسير ابن عطية ج ٥، ص ٤٩٠،
وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٧٤١٩ والبحر المحيط ج ٨ ص ٤٧٧.

وليذكر المسلمين في كل زمان ومكان بما كان عليه حال أعدائهم مع دعوة الإسلام في أيامها الأولى^(١).

ثانياً: مواقع "الشح"

ورد "الشح" اسماً في خمسة مواضع في القرآن الكريم جاء مصدراً في ثلاثة مواضع وجمعاً في موضعين وبياتها كمايلي:

١- قال تعالى "وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" [النساء: ١٢٨]

٢- وقال سبحانه "أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْأَسَنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" [الاحزاب: ١٩]

(١) قيل: الآيات نزلت في أبي جهل وقيل: أمية بن خلف وعلى كل حال فهو رجل ثرى أظهر عدوانه ونجله للإسلام والمسلمين. يراجع مفاتيح الغيب للفخر الرازي ج١٦ ص٤٤٨ وتفسير القرطبي ج١٠ ص٧٤٢٢ والبحر المحيط ج٨ ص٤٧٧، ٤٧٩ وحاشية الشهاب، ج٨ ص٣٦٩

٣- وقال تعالى "وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الحشر: ٩]

٤- وقال سبحانه "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [التغابن: ١٦]

مناسبة اللفظ للقرآن المدنى:

وردت مواقع "الشح" فى السور المدنية أيضا، ومجيؤها فى القرآن المدنى كان مناسبا للكشف عن بعض أمراض القلوب التى فشلت فى بعض أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، ومن ذلك: النفاق الذى ورد ذكره كثيراً فى القرآن المدنى، والشح الذى يدعو صاحبه لمنع كل خير حتى يهلك نفسه ويهلك غيره، وقد جاء ذكر "الشح" فى سياق الحديث عن النفس مما يؤكد أنه طبع أصيل فيها.

إن ذكر "البخل" و"الشح" فى القرآن المدنى فيه تحذير من الركون إلى الدنيا، وفيه تنظيم للحياة الاجتماعية التى بدأ المسلمون يعيشونها فى المدينة المنورة، حيث أصبح لهم دولة ينظمها قانون الشريعة ويضبطها ميزان الشرع.

وضع القرآن أسس هذه الحياة التى تقوم على التكافل والتضامن والإيثار، ولم تكن هذه الدولة موجودة فى مكة على الوصف الذى ذكرناه، والحال الذى اعتبرناه كما أن ذكر "البخل" و"الشح" فى القرآن المدنى فيه تحذير آخر للمسلمين من أن يتشبهوا باليهود الذين جاؤروهم فى المدينة، وكانوا حريصين غاية الحرص على الحياة الدنيا كأنهم مخلصون فيها!!

ثالثاً: معنى "البخل" و"الشح" عند أئمة اللغة والتفسير،
والتفريق الدلالى بينهما :

من المعلوم أن الألفاظ أوعية المعانى، وأن لكل لفظ سمناً خاصاً به فى أداء المعنى. ولقد اهتم علماء اللغة بعلم الدلالة اهتماماً كبيراً ورأوا أنه من أجل علومها، وتحدثوا عن تطور الدلالة فهى تضيق وتتسع وتتغير وفق البيئة والزمن وعادات الناس فمفهوم الدلالة = أوالمعنى = خاضع للعرف والاستعمال. وللمجاز دور بارز فى تغيير الدلالة والكشف عن خفايا المعانى.

والدلالة - كما ذكر علماء الفقه - أنواع كثيرة منها: الدلالة الصوتية، والدلالة الصرفية، والدلالة النحوية، والدلالة المعجمية، والدلالة السياقية^(٥)، وفهم هذه الأنواع مهم ولازم؟ لأنه يكشف عن مستويات المعنى ويدل على الفروق الدقيقة بين الألفاظ، ويهدى المتأمل إلى عظمة هذا القرآن العظيم للكشف عن بعض أسرارهِ اللغوية والبيانية والأسلوبية، لأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى استعمل هذه اللغة هذا الاستعمال المعجز، فوضع كل كلمة فى موضعها الخاص بها لتؤدى المعنى الذى أراده الله سبحانه، فلا يستطيع الخلق كلهم إنساً وجناً أن يقيموا لفظاً مكان ما استعمله القرآن حتى يؤدى المعنى الذى قصده

(٥) اراجع دلالة الألفاظ د/ إبراهيم أنيس ص ٤٤ إلى ص ٦١ وراجع تطور الدلالة والحقيقة والمجاز وعوامل تطور الدلالة فى الكتاب المذكور من ص ١٢٢ إلى ص ١٦٧.

القرآن، ولا يستطيع الخلق كلهم أن يعبروا عما يريدون بتلك الدقة التي استعملها القرآن العظيم.

فالكلمة في القرآن لها شخصية تعبيرية وخصوصية ربانية، ولا يليق بعظمة وروعة هذا القرآن أن تفسر كلمة بكلمة أخرى فيقال مثلاً: "البخل" هو "الشح" أو يقال "الشح" هو "البخل" كما لا يصح أن يقال: "الخلف" هو "الوراء" و"الوراء" هو "الخلف" إلى غير ذلك مما وقع في كتب اللغة والتفسير على جهة التسامح أو التساهل!!^(١).

ولأهمية التفريق الدلالي بين الألفاظ أذكر الآن. ما قاله أئمة اللغة والتفسير في معنى كل من "البخل" و"الشح" والفروق الدلالية بينهما:

١- ذكر الخطاب ت ٣٨٨: أن أكثر الناس يظنون في الألفاظ المتقاربة في المعاني أنها متساوية في الدلالة على المعنى، ثم بين أن الأمر على خلاف ذلك فقال: "ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح.....

والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها وإن كانا

(١) يراجع "الفروق الدقيقة بين الخلف والوراء في النظم القرآني البديع" للباحث ففيه كثير من الفروق الدلالية بين لفظي: الخلف والوراء ويقاس عليهما باقي ألفاظ اللغة وهو بحث منشور في العدد الثالث والعشرين من حولية كلية اللغة العربية بالقازيق ٢٠٠٣م.

يَشْتَرِكَانِ فِي بَعْضِهَا..... وَأَمَّا "الشَّحْ" وَ"البَخْلُ" فَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ
البَخْلَ مَنَعَ الْحَقَّ وَهُوَ ظَلَمٌ، وَالشَّحُّ مَا يَجِدُهُ الشَّحِيحُ فِي نَفْسِهِ مِنْ
الْحَزَازَةِ عِنْدَ أَدَاءِ الْحَقِّ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ يَدِهِ.

قال: ولذلك قيل: الشحيح أعذر من الظالم.

قلت: وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روى عن ابن مسعود...
عن أبي الشعثاء قال: قلت لعبد الله بن مسعود يا أبا عبد الرحمن، إنني
أخاف أن أكون قد هلكت، قال: ولم ذاك؟ قلت: لأني سمعت الله يقول: "
وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الحشر: ٩]

وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء: قال: ليس ذاك الشح الذي
ذكره الله في القرآن، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك
البخل وينس الشيء البخل" (٧).

٢- وقال أبو هلال العسكري ت ٣٩٥: "الفرق بين الشح والبخل أن
الشح الحرص على منع الخير، يقال زُند شحاح إذا لم يور ناراً وإن أشح
عليه بالقدح كأنه حريص على منع ذلك والبخل: منع الحق، فلا يقال لمن
يؤدي حقوق الله تعالى بخيل" (٨).

(٧) بيان أعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط دار المعارف
تحقيق/ محمد خلف الله وديكتور/ محمد زغلول سلام.
(٨) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٨٦، ط، المكتبة التوفيقية، تحقيق/ عماد
زكي الباروي.

وما ذكره أبوهلال أقرب إلى الصواب مما ذكره الخطابي كما ترى، فأبوهلال ذكر أن الشح هو الحرص على منع الخير وأن البخل هو المنع ذاته وهذا كلام مقبول عند العلماء بل كادوا يجمعون عليه، أما الخطابي فقد ذهب بعيداً حيث أطلق الشح على الاعتداء وأكل مال الغير وهذا ما لم يقل به أحد، لأن الشح صفة نفس وليس صفة جوارح.

٣- وكان الراغب الأصفهاني ت ٥٠٢ قريبا من أبى هلال فى ذكر الفرق بينهما فهو يقول "البخل إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه ويقابله الجود، يقال: بخل فهو باخل، وأما البخيل فالذى يكثر منه البخل كالرحيم من الراحم. والبخل ضربان: بخل بقتيات نفسه وبخل بقتيات غيره وهو أكثرهما ذمًا دليلنا على ذلك قوله تعالى: "الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ" [النساء: ٣٧]^(٩)

وقال عن الشح: "الشح بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة قال: "وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ" وقال "ومن يوق شح نفسه" [الحشر: ٩] يقال: رجل شحيح وقوم أشحة قال: "أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ، أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ" [الاحزاب: ١٩] وخطيب شحشح ماضٍ فى خطبته من قولهم: "شحشح البعير فى هديره"^(١٠).

والراغب - كما ترى - يستدل على فهم الدلالة بآيات من القرآن الكريم وهذا ما جعله دقيقاً فى تحديد المفهوم.

(٩) المفردات مادة: "بخل"

(١٠) المفردات: مادة: "شح"

٤- وابن منظور ت ٧١١ ذكر إضافات طيبة تحسب له وأورد مشتقات المادة وعرف الكلمة بذكر ضدها فبين أن البخل والبخل ضد الكرم، واسم الفاعل: باخل وقد يوصف بالمصدر فيقال: رَجُلٌ بَخْلٌ. واسم المرة: بَخْلَةٌ وبَخَالٌ صيغة مبالغة تدل على شدة البخل والمبخلّة: الشئ الذى يحملك على البخل^(١١).

وقال فى الشح: "الشُّحُّ والشُّحُّ: البُخْلُ والضمُّ أعلى، وقيل: هو البخل مع حرص، وفى الحديث: أياكم والشح.

الشح: أشد البخل وهو أبلغ فى المنع من البخل، وقيل: البخل فى أفراد الأمور وآحادها والشح عام. وقيل: البخل بالمال والشح بالمال والمعروف.... وتشاحوا فى الأمر وعليه شح به بعضهم على بعض وتبادروا إليه حذرًا فوته.

ويقال: هما يتشاحان على أمر إذا تنازعا، لا يريد كل واحد منهما أن يفوته.. وزند شحاح: لا يورى كانه يشح بالنار... وأرض شحاح تسيل من أدنى مطرة كأن تشح على الماء بنفسها... والشح: حرص النفس على ما ملكت وبخلها به، وما جاء فى التنزيل من الشح فهذا معناه كقوله تعالى: "ومن يُوقْ شِحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ".... وفى الحديث: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفقر، وفى

(١١) أراجع مادة: بخل فى اللسان.

حديث ابن عمر: أن رجلاً قال له: إني شحيح فقال: وإن كان شحك لا يحملك على أن تأخذ ما ليس لك فليس بشحك بأس" (١٢).

وابن منظور - كما يلاحظ الباحث - جمع في دلالة الشح كل ما قيل حتى زمانه، ولولا أنه ذكر في كلامه أن الشح هو البخل لقلنا إنه خير من تناول دلالة الكلمة على الإطلاق.

٥ - والزرخشى ت ٧٩٤ لاحظ الفرق بين البخل والشح عند حديثه عن: ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه فقال: " فلا يقوم مرادف فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمال والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنى غير معنى الأفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا على جوازه في الأفراد... ومن ذلك: الشح والبخل، والشح هو البخل الشديد" (١٣).

٦ - والفيروز أبادى ت ٨١٧ ذكر الفرق بين البخل والشح والعلاقة بينهما فقال: "والبخل: إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه ويقابله الجود، والبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل كما قال: (صلى الله عليه وسلم): "إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا

(١٢) اللسان مادة: شح.

(١٣) البرهان للزرخشى ج ٤ ص ٧٨ و ص ٧٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ، دار التراث.

وأمرهم بالقطيعة فقطعوا" فالبخيل من أجاب داعى الشح والمؤثر من أجاب داعى الجود والسخاء والإحسان^(١٤).

ثم قال عن الشح: "شح به: بخل مع حرص، قال تعالى: "وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الحشر: ٩] والشح ضد الإيثار، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ماله بیده، فإذا حصل بيده شح وبخل بإخراجه، فالبخل ثمرة الشح والشح يأمر بالبخل كما قال (صلى الله عليه وسلم): "إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا" فالبخيل من أجاب داعى الشح والمؤثر من أجاب داعى الجود والسخاء والإحسان^(١٥).

ويلاحظ أن الفيرزوأبادى كرر ما قاله عن البخل عند حديثه عن الشح لكن يحمده أنه ذكر ما يقابل اللفظين فذكر أن البخل يقابله الجود والسخاء، والشح يقابله الإيثار كما يحمده - رحمه الله - أنه ذكر العلاقة بين اللفظين فبين أن البخل ثمرة من ثمرات الشح فالشح يدعو للبخل والبخيل من أجاب داعى الشح، فالعلاقة بينهما: علاقة السبب والمسبب. وأكتفى بما ذكرته من أقوال أئمة اللغة فى التفريق الدلالى بين لفظى: البخل والشح، ففيه كفاية - فيما أرى - حيث ظهر الفرق بين اللفظين، وتبين ما يقابل كل واحد منهما وظهرت العلاقة بينهما وأن

(١٤) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيرزوأبادى ج ٢ ص ٢٢٧ تحقيق: محمد على النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(١٥) السابق ج ٣ ص ٣٠٠.

البخل ثمرة من ثمار الشح ومسبب عنه، وليست الثمرة التى قصدها العلماء من النوع الذى يلذ طعمه ويحسن هضمه ولكنها ثمرة ضارة خرجت من شجرة خبيثة فأفسدت من أكلها وقضت عليه.

وننتقل الآن إلى ما ذكره أئمة التفسير فى التفريق الدلالى بين "البخل" و"الشح".

الفروق الدلالية بين البخل والشح عند أئمة التفسير:

إذا انتقلنا إلى علماء التفسير نجد عندهم إضافات دلالية حصلوها من تأمل النظم القرآنى الشريف.

١ - فالزمخشرى ت ٥٣٨ - رحمه الله - يقول عند تفسيره لقوله تعالى: "وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ" [النساء: ١٢٨]: "ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه يعنى أنها مطبوعة عليه" (١٦).

وقال عند آية سورة الحشر: "الشح بالضم والكسر وقد قرئ بهما اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزّه حريصة على المنع... وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها وأما البخل فهو المنع نفسه" (١٧).

وكلام الزمخشرى موجز ودقيق فقد بين أن الشح الحرص على المنع وأن النفس مطبوعة على ذلك، أما البخل فهو المنع نفسه وهذا

(١٦) الكشف جـ ١ ص ٣٠٢ ط دار المعرفة بيروت.

(١٧) المرجع السابق جـ ٤ ص ٨٢.

أدق ما قيل في الفرق بين اللفظين وقد اعتمد عليه عامة المفسرين مع ذكر إضافات طيبة تحسب لأصحابها.

٢- وابن عطية ت ٥٤٦ - رحمه الله - يقول: "ويدلك على أن الشح في كل أحد قوله تعالى: "وأحضرت الأنفس الشح" وقوله "شح نفسه" فقد أثبت أن لكل نفس شحاً وقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "وأن تصدق وأنت صحيح شحيح" وهذا لم يرد به واحداً بعينه وليس يجمل أن يقال هنا: أن تصدق وأنت صحيح بخيل" (١٨).

ثم ذكر أن عبدالرحمن بن عوف (رضى الله عنه) كان يطوف بالبيت العتيق ويقول: "اللهم قنى شح نفسي لا يزيد على ذلك، فقيل له في ذلك. فقال: إذا وقيتَه لم أفعل سوءاً... شح النفس فقر لا يذهب غنى المال بل يزيده وينصب به" (١٩).

فابن عطية يرى أن الشح في كل أحد وأنه الفقر الحقيقي الذي لا يذهب غنى المال بل يزيده.

٣- وفخر الدين الرازي ت ٦٠٦ - رحمه الله - يقول: "واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع، والشح هو الحالة

(١٨) المحرر الوجيز لابن عطية ج ٢ ص ١٢٠ تحقيق: عبدالسلام عبدالشافى ط دار الكتب العلمية.

(١٩) السابق ج ٥ ص ٢٨٨.

النفسانية التى تقتضى ذلك المنع فلما كان من صفات النفس لا جرم
قال تعالى: "وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"^(٢٠).

وقال فى موضع آخر: "الشح هو البخل وأنه يعم المال وغيره يقال: فلان
شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف وقيل: يوق ظلم نفسه
فالشح هو الظلم"^(٢١).

الرازى يرى أن الشح أعم من البخل لأنه يدخل المال وغيره،
وأن البخل نفس المنع أما الشح فهو طبع من طباع النفس يقتضى هذا
المنع وما ذكره لا يخرج عما قرره الزمخشري.

٤- والقرطبي ت ٦٧١- رحمه الله- لم يخرج عما ذكره الزمخشري بل
أكد كلامه، فذكر أن البخل هو ن يمنع الإنسان إخراج ما حصل عنده
من الحق الواجب عليه، وأن الشح هو الحرص على البخل والمنع
وذكر من الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا المعنى^(٢٢).

٥- وبمثل ذلك قال البقاعى ت ٨٨٥- رحمه الله- فذكر أن الشح خلق
باطن يقود إلى البخل، وأن البخل فعل ظاهر مسبب عن الشح^(٢٣).

٦- ولم يخرج أبوالسعود ت ٩٨٢- رحمه الله- عن هذا المعنى حيث
ذكر أن الشح غريزة من غرائز النفس تدفع صاحبها إلى البخل^(٢٤).

^(٢٠) مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٤٧٩ ط دار الفد العربى.

^(٢١) السابق ج ١٥ ص ٥٦٤.

^(٢٢) إراجع تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٣٣، ١٦٣٤ ط دار الفد العربى.

^(٢٣) إراجع نظم الدرر ج ٨ ص ٢١ ط دار الكتاب الإسلامى.

هكذا سار المفسرون على ما ذكره الزمخشري - رحمه الله - وهو لم يخرج عما ذكره أئمة اللغة.

وإذا انتقلنا إلى شراح الحديث النبوي الشريف لا نجدهم يخرجون عما ذكره اللغويون والمفسرون في فهم دلالة البخل والشح.

١ - فالنوى ت ٦٧٦ - رحمه الله - يقول: "الشح أعم من البخل وكان الشح جنس والبخل نوع وأكثر ما يقال: البخل في أفراد الأمور والشح عام كالوصف اللازم وما هو من قبل الطبع" (٢٥).

ويقول في موضع آخر: "قال جماعة: الشح أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل، وقيل: هو البخل مع حرص وقيل: البخل في أفراد الأمور والشح عام. وقيل: البخل في أفراد الأمور والشح بالمال والمعروف. وقيل: الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده" (٢٦).

وما ذكره النوى لا يخرج عن كلام السابقين بل هو منقول من كلامهم، فالشح كالوصف اللازم فهو طبع من طباع النفس، وهو عام. أما البخل فيكون في أفراد الأمور، لأنه يختص بمنع المال.

(٢٥) يراجع إرشاد العقل السليم لأبي السعود ج ٨ ص ٢٢٨ ط دار إحياء التراث العربى.

(٢٥) شرح النوى على صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢٣ ط دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢٦) السابق ج ١٦ ص ١٣٤.

٢- ولم يخرج ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢- رحمه الله- عن هذا المعنى، فهو يقول: "والشح أعم من البخل، لأن البخل يختص بمنع المال والشح بكل شئ وقيل: الشح لازم كالطبع والبخل غير لازم" (٢٧).

(٢٧)فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ٩ ص ٤١٩ ط دار الريان للتراث.

تعقيب

يمكن للباحث بعد الوقوف على ما ذكره العلماء من دلالة البخل والشح أن يسجل الفروق الدلالية بينهما فيما يأتي:

١ - الشح طبع من طباع النفس البشرية لا يكاد يفارقها، والبخل نتيجة من نتائج هذا الشح وأثر دال على وجوده.

٢ - الشح عام، لأنه يتعلق بالمال وغيره من أنواع المعروف والبخل خاص لأنه يتعلق بالمال وما يلزمه كالطعام والشراب والصدقة.

٣ - الشح خلق باطن، لأنه داء من أدواء النفوس فقد يوجد في شخص ولا يستدل عليه. أما البخل فوصف ظاهر لا يمكن إخفاؤه.

٤ - الشح يقابله الإيثار، والبخل يقابله الجود.

٥ - البخل والشح وصفان من الأوصاف المذمومة في البشر إلا أن الشح أكثر ذمًا من البخل، لأنه ظلم كما ذكر الرازي، وهو الذي يدفع إلى البخل.

وبهذا التفريق الدلالي بين اللفظين ندرك دقة القرآن الكريم في اختيار ألفاظه فلكل لفظ خصوصية لا توجد في غيره، وعلينا أن نتعرف على خصائص ألفاظ اللغة العربية حتى ندرك بعض أسرارها وسر اختيار لفظ بعينه في القرآن الكريم.

وعليّنا أن نتوقف أمام ما نجده في كتب اللغة والتفسير من تعريف لفظ بغيره فيقال مثلاً: "البخل" هو "الشح" أو يقال: "الشح" هو "البخل" أو يقال: "الخلف" هو "الوراء" و"الوراء" هو "الخلف" إلى مثل ذلك مما نجده عند اللغويين والمفسرين فهذا أمر يحتاج إلى مراجعة خاصة ألفاظ القرآن الكريم الذي أعجز الخلق جميعاً.

المبحث الأول: خصائص النظم القرآنى فى

مواقع البخل:

نعيش الآن مع مواقع "البخل" فى القرآن الكريم لتأمل دقة نظمها، وسر بلاغتها، وسوف نتبع الترتيب المصحفى حتى ندرك علاقة الكلمة بسياقها ومقامها الذى وردت فيه.

١ - قال الله تعالى: "وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" آل عمران/ ١٨٠.

ذكر جمهور المفسرين أن المراد بالبخل فى هذه الآية منع إنفاق المال^(٢٨). ويؤيد هذا الفهم السياق الذى وردت فيه الآية، فقد وردت فى سياق المواجهة بين المؤمنين والكافرين وفى مقام الجهاد فى سبيل الله وهذا يتطلب التضحية بالمال.

وهناك من أجاز أن يكون البخل مستعملاً فى منع العلم، وأن الآية واردة فى ذم اليهود الذين كتموا دلائل نبوة النبى محمد(صلى الله عليه وسلم).

ويرى الفخر الرازى أن الآية يمكن أن تكون عامة فى البخل بالعلم والبخل بالمال ويكون الوعيد حاصلًا عليهما معاً^(٢٩).

^(٢٨)راجع الكشف ج ١ ص ٢٣٣ ومفاتيح الغيب ج ٤ ص ٥٨٩ وتفسير القرطبى ج ٢ ص ١٦٣٢ والبحر المحيط ج ٣ ص ١٣٣ وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٢.

^(٢٩)راجع مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٥٩٠ إلى ص ٥٩٣.

والذى يبدو لى- والله أعلم بمراده- أن البخل فى هذه الآية مستعمل فى حقيقته من منع إنفاق المال الواجب عليه ويؤيد هذا سياق الآية كما ذكرت. وقد ورد فى الآية ما يشير إلى ذلك من مثل قوله تعالى: "أتاهم الله من فضله" وقوله "ولله ميراث السموات والأرض" وقوله: "سيطوقون ما بخلوا به" وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شذقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا (صلى الله عليه وسلم) "ولا يحسبن الذين يبخلون" الآية^(٣٠). فالآية إذاً واردة فى منع المال وقد ذكرها البخارى فى باب إثم مانع الزكاة، والحديث الذى ذكرناه فيه تصريح بذكر المال، مما يجعل البخل وراداً على الحقيقة من منع إنفاق المال الواجب وليس وراداً على المجاز من منع دلائل نبوة النبى (صلى الله عليه وسلم) والله أعلم بمراده.

والنهي فى قوله تعالى: "ولا يحسبن" وارد للتهديد والوعيد لكل من بخل بماله ولم يؤد حقه، وفيه تنبيه على ضلالهم وسوء تقديرهم للأمر.

وفى الآية حذف المفعول الأول على قراءتى "يحسبن"، و"تحسبن" والتقدير على القراءة الأولى: ولا يحسبن أحد بخل الذين يبخلون... وعلى القراءة الثانية: ولا تحسبن بخل الذين يبخلون والفاعل ضمير المخاطب. ومن جعل الفاعل فى الآية "الذين يبخلون" على قراءة الياء قدر المفعول: بخلهم، والذى سوغ هذا الحذف هو دلالة "يبخلون" عليه،

(٣٠) فتح البارى ج ٣ ص ٣١٥.

وقد أفاد هذا الحذف الإيجاز والإسراع فى الدلالة على المقصود، وفيه احتراز عن ذكر شئ يمكن الاستغناء عنه، والقرآن الكريم منزّه عن ذلك^(٣١).

وعبر بالموصول فى قوله تعالى: "الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله" لزمهم بما فى حيز الصلة، ولذلك أورد ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله إياه من فضله وفى هذا مبالغة فى بيان سوء صنيعهم، حيث آتاهم الله فضلا لا مدخل لهم فيه ولا استحقاق، وهذا من موجبات البذل لا البخل وقد نص الله تعالى على شرية البخل فى قوله: "بل هو شر لهم" مع كونها مفهومة من نفي خيريته للمبالغة فى ذلك، والتنوين فى شرّ للتفخيم^(٣٢).

وبين "خيراً"، و"شر" طباق يؤكد الفرق الواضح بين ما توهموه فى الشئ وبين حقيقته وهذا يكشف عن خسارتهم وخيبة ظنهم. وقد بين الله تعالى كيفية هذا الشر فى قوله: "سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة". والسين فى قوله سبحانه: "سيطوقون" تدل على قرب الاستقبال إذ السين فى وضعها أقرب فى التنفيس من سوف^(٣٣).

قال ابن هشام: "السين المفردة حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال وينزل منه منزلة الجزء ولهذا لا يعمل فيه مع اختصاصه به.... ومعنى قول المعربين فيها "حرف تنفيس" حرف توسيع، وذلك أنها نقلت المضارع من الزمن الضيق - وهو الحال - إلى الزمن الواسع وهو

^(٣١)يراجع الكشف ج ١ ص ٢٣٣ والمحزر الوجيز ج ١ ص ٤٥٧ ومفاتيح الغيب ج ٤ ص ٥٨٩ والبحر المحيط ج ٣ ص ١٣٣ وتفسير النسفى ج ١ ص ٢٧٧.

^(٣٢)يراجع إرشاد العقل السليم ج ١ ص ١٢٠ ط دار إحياء التراث العربى.

^(٣٣)يراجع البحر المحيط ج ١ ص ٥٨٣.

الاستقبال. وأوضح من عبارتهم قول الزمخشري وغيره "حرف استقبال" وزعم بعضهم أنها قد تأتي للاستمرار لا للاستقبال.... وهذا الذى قاله لا يعرفه النحويون... ثم لو سلم فالاستمرار إنما استفيد من المضارع كما تقول: فلان يقرى الضيف ويصنع الجميل تريد أن ذلك دأبه، والسين مفيدة للاستقبال إذ الاستمرار إنما يكون فى المستقبل^(٣٤).

وذكر الزمخشري أن السين تفيد تحقيق الوعد والوعيد فقال عند تفسيره لقوله تعالى: "فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ" البقرة/١٣٧: "ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين"^(٣٥).

وقال عند قوله تعالى: "أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ" [التوبة ٧١]: "السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهى تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد فى قولك: سأنتقم منك يوماً تعنى أنك لا تفوتنى وإن تباطأ ذلك. ونحوه "سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا" مريم ٩٦^(٣٦).

والتطويق فى قوله تعالى: "سيطوقون بما بخلوا به" يحتمل الحقيقة حيث يصير المال طوقاً فى أعناقهم كما ورد فى الحديث السابق من أن المال يصير شجاعاً أقرع يطوق صاحبه أى: يصير له طوقاً. ويمكن حمل الكلام على التمثيل وهو الظاهر - كما قال أبوحيان - حيث شبه اشتغال العذاب الذى لحقهم جراء بخلهم بأموالهم وإحاطته بهم بهيئة الطوق الطويل الذى يحيط بالجسد بجامع الإحاطة والتمكن، وهذه الصورة البيانية فيها كناية عن صفة اللزوم والإحاطة والتمكن، وفى هذه

(٣٤) مغنى اللبيب لابن هشام ج ١ ص ١٣٨ ط صبيح تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ويراجع البرهان للزركشى ج ٤ ص ٢٨٠.

(٣٥) الكشف ج ١ ص ٩٧.

(٣٦) السابق ج ٢ ص ١٦٢.

الصورة بيان لقدرة الله تعالى، وهى من الصور التى يراها صاحبها حين ينكشف عنه غطاء الجهل والغفلة^(٣٧).

وقوله تعالى: "ولله ميراث السموات والأرض" إخبار ببقاء ملكه بعد فناء خلقه وفى هذا حث على الإنفاق، لأنه إذا كان كل شئ من الله ثم يعود إليه فمالهم يبخلون عليه بملكه؟!.

يقول القرطبى - رحمه الله -: "فتبقى الأملاك والأموال لا مدعى لها، فجرى هذا مجرى الوراثة فى عادة الخلق، وليس هذا بميراث فى الحقيقة، لأن الوارث فى الحقيقة هو الذى يرث شيئاً لم يكن ملكه قبل، والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض وما بينهما وكانت السموات وما فيها والأرض وما فيها له، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها"^(٣٨).

وكلامه - رحمه الله - فيه معنى جليل وهو: صيرورة كل الأشياء إليه سبحانه وأنه تعالى خاطب الخلق بما يعلمون، لأنهم يجعلون ما رجع إلى الإنسان ميراثاً له، وما ذكره القرطبى له أساس عند الفخر الرازى وهو متداول عند المفسرين من بعده^(٣٩).

والتعبير بالميراث فى الآية يحتمل وجهين: الأول - أن الكلام على الحقيقة بمعنى أن الله سبحانه يبقى له وحده جميع ما يقع من إرث فى السموات والأرض كما كان ذلك له سبحانه قبل وجود الخلق وهذا

^(٣٧) يراجع الكشف ج ١ ص ٢٣٣ ومفاتيح الغيب ج ٤ ص ٥٩٢ والبحر المحيط ج ٣ ص ١٣٤ وحاشية الشهاب ج ٣ ص ٨٥ وشرح أحاديث من صحيح البخارى د/ محمد أبوموسى ص ٢٩٥ ط مكتبة وهبه.

^(٣٨) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٦٣٥.

^(٣٩) يراجع تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٥٩٣ والبحر المحيط ج ٣ ص ١٣٤ وروح المعانى ج ٢ ص ٣٥١ وتراجع مادة: "ورث" فى لسان العرب.

التعبير يفيد دوام ملكه وأنه في الأبد كهو في الأزل ومن أسمائه سبحانه "الوارث". الثاني - أن التعبير بالميراث مستعار للملك والمعنى - والله أعلم بمراده - والله ملك السموات والأرض، وعبر بالميراث خطاباً على ما يفهم البشر من دلالة هذا اللفظ، والمجئ بالميراث - هنا - أبلغ لأن فيه دليلاً على فناء جميع خلقه وأنه لا يبقى منهم وارث واحد، وتقديم الجار والمجرور "لله ميراث السموات والأرض" يفيد قصر صفة ميراث السموات والأرض على اسم الجلالة وفي هذا القصر تأكيد وتقرير لهيمنة الله سبحانه^(٤٠).

وتقديم السموات على الأرض لشرفها وعظمة ما فيها وفي هذا زيادة توبيخ لمن بخلوا، لأنهم بخلوا بما لا يساوى شيئاً في ملك الله العظيم.

وفي قوله تعالى: "والله بما تعملون خبير" التفات من الغيبة إلى الخطاب، وهو أبلغ في الوعيد، لما هو معلوم أن تهديد العظيم بالمواجهة أشد، فالله تعالى يخاطب جميع من وقعت فيهم صفة البخل وغيرهم ممن لم تقع فيهم هذه الصفة بأنه خبير بكل أعمالهم وجميع أحوالهم، وإظهار الاسم الجليل "الله" في موضع الإضمار لتربية المهابة في قلوب الناس^(٤١).

^(٤٠) يراجع تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٥٩٣ وتفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٣٥ والبحر المحيط ج ٣ ص ١٣٤ وروح المعاني، ج ٢، ص ٣٥١.

^(٤١) يراجع الكشف ج ١ ص ٢٣٤ والبحر المحيط ج ٣ ص ١٣٤ وتفسير أبي السعود ج ١ ص ١٢٠ وص ١٢١ وتفسير النسقي مجلد ١ ص ٢٧٧ وروح المعاني ج ٢ ص ٣٥٢.

وقد أكد هذه المهابة تكرار الاسم الجليل "الله" ثلاث مرات فى هذه الآيه المباركة، دون غيره من أسماء الله الحسنى مثل "الرحمن" أو "الرحيم" أو غير ذلك من أسماء تدل على رحمته ورضاه.

وهذا يلزم كل عاقل يحسن التأمل فى كتاب الله يلزمه بأن يتأمل فى كل عطاء الله له، ويتوقف أمامه متدبراً له سواء أكان ذلك مالا أما كان علماً أم كان عافية، أم ولداً، أم غير ذلك من نعم الخالق سبحانه، ويعلم ما يجب عليه أمام هذا العطاء وأنه ليس كل عطاء دليلاً على رضى الله، فقد يعطى عبده ليحاسبه إن قصر فى العمل بمقتضى النعمة، نعوذ بالله من ذلك ونسأله هداة ورحمته ورضاه.

٢ - وقال سبحانه "الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا" [سورة النساء: ٣٧]

يرى أكثر المفسرين أن هذه الآيه نزلت فى اليهود، فهم أحرص الناس على الحياة وقد دعاهم هذا الحرص إلى البخل وأمر غيرهم به، كما أنهم كتموا ما أنزل الله فى التوراة من نعت النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وقيل: إنها نزلت فى المنافقين، وقيل: إنها عامة فى كل من يبخل ويأمر بالبخل من اليهود وغيرهم^(١٢).

وعبر بالموصول لزمهم بما فى حيز الصلة ولبیان شهرة هذه الأوصاف فيهم، لأن التعبير "بالذى" - عموماً - سواء أكان مستنداً إليه أم كان مستنداً أم كان غير ذلك يدل على أن جملة الصلة قد سبق من السامع علم بها، وقد عقد الإمام عبد القاهر - رحمه الله - فى دلائل

(١٢) إراجع مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٢٠٩ وتفسير القرطبى ج ٢ ص ١٨٥٨ والبحر المحيط ج ٣ ص ٢٥٦ وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٦.

الإعجاز فصلاً فى "الذى" خصوصاً ذكر فيه: ((أنتك لا تصل "الذى" إلا
بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها، وإمر قد عرفه له))^(٢٣).
فهذه الصفات إعنى: البخل وأمرهم الناس به وكتمان نعم الله
صفات معلومة ومشهورة فى هذا الصنف من الناس سواء أكانوا يهوداً
أم كانوا منافقين أم كانوا غيرهم.

فهم يمقتون السخاء ولا يحبونه من أجل ذلك بخلوا بما فى
أيديهم وبما فى أيدي غيرهم حين أمروهم بالبخل، إنهم طبعوا على منع
الخير مهما كان مصدره^(٢٤).

والتعبير بالمضارع "يبخلون"، "يأمرهم"، "يكتمون" لبيان أنها
صفات متجددة فيهم، يتكرر حدوثها ولا يتوقف، فهم يدبرون ذلك تدبيراً.
ويعدون له إعداداً محكماً حتى يصلوا من وراء ذلك إلى غرضهم القبيح
وهو منع نعم الله عن يستحقها من خلقه.

والتعبير بـ"ما" الموصولة دون "الذى" فى قوله: "ما آتاهم"
يناسب حالة الإخفاء والكتمان التى تعودوا عليها مع نعم الله فهى نعم
كثيرة سترها عن خلق الله ولكن الله فضحهم، لأنه سبحانه العليم
بأسرارهم.

ثم ذكر الله تعالى عقوبتهم التى تنتظرهم على هذا الذنب فقال:
وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً وذكر الكفر فى ختام الآية يشير إلى أنها
نزلت فى اليهود وحمل الكفر على ظاهره واضح.

والتعبير بضمير الجمع والتعظيم "أعتدنا" للتحويل وتنكير "عذاباً"
يؤكد ذلك، لأن عذاب العظيم عظيم. والجملة تزييل يؤكد أن تلك الصفات

^(٢٣) دلائل الإعجاز ص ٢٠٠، ص ٢٠١ تحقيق محمود شاكر ط مكتبة الأسرة.

^(٢٤) اراجع الكشف ج ١ ص ٢٦٨.

السابقة لا توجد إلا في كافر، فهي إن كانت في اليهود فحمل الكفر على ظاهره واضح كما ذكرنا، وإن كانت في المنافقين أو غيرهم من العصاة فلأن البخل والأمر به وكتمان نعم الله قد يقع على وجه يوجب الكفر مثل إظهار الشكاية عن الله وعدم الرضاء بقدره وعدم نصرة دينه وكل هذا يؤدي للكفر.

ويمكن أن يحمل الكفر على كفر النعم أي سترها، لأن البخيل يستر نعم الله وينكرها وليس المراد كفر الشرع و الدين.

ووضع الظاهر "الكافرين" موضوع الضمير لبيان أن من وجدت فيه هذه الصفات فهو كافر بنعم الله ومن كفر بنعم ربه فهو مستحق لعذاب يهيئه كما أهان نعم الكريم سبحانه^(٤٥). وتقديم الجار والمجرور على المفعول يفيد القصر، قصر صفة العذاب المهين على أولئك الكافرين وفيه بشارة للمؤمنين الذين عظموا نعم ربهم ولم يبخلوا بها.

٣- وقوله تعالى: "وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ" [التوبة: ٧٥ / ٧٦]

جاءت الآيتان المباركتان في شرح أحوال بعض المنافقين، والظاهر أن الحديث هنا عن جماعة منهم وليس عن واحد بعينه بدليل التعبير بضمائر الجمع "آتاهم"، "بخلوا"، "تولوا"، "معرضون" وقد ذكر المفسرون أسماء بعضهم مثل: نبتل بن الحارث، وجد بن قيس ومعتب بن قشير، وثعلبة بن حاطب.

(٤٥) إراجع مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٢١٠ وإرشاد العقل السليم ج ١ ص ١٧٦ وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٦ وروح المعاني ج ٣ ص ٣٠.

وقيل: إن هذه الآيات نزلت في واحد معين هو: ثعلبة بن حاطب الذي وردت قصته في كتب التفسير وفي الصحاح، وعبر عنه بالجمع وهو واحد على طريقة العرب في إلصاق فعل الواحد بقبيلته وفي هذه الطريقة مجاز عقلى بإسناد الفعل إلى الجميع والفاعل واحد وفيه ما فيه من المبالغة في الرضى بوجود هذا الوصف وكأنه موجود في كل المنافقين في كل زمان، وما ذكره المفسرون من أن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، أو في ثعلبة بن حاطب ليس معناه أنها قاصرة عليه لا تتعداه إلى غيره ممن توجد فيهم هذه الصفات، فالعبرة بعموم اللفظ كما قيل^(٤٦).

وفي الآيتين مقابلة بين حالتين متغايرتين تمام المغايرة لذلك الصنف من البشر، فقد عاهدوا الله إن آتاهم المال وأنعم عليهم بوافر الرزق أن يتصدقوا وأن يكونوا من الصالحين فيؤدون حق هذه النعم من طاعة المنعم وشكره سبحانه، ثم جاءت الحالة المقابلة لذلك وهي بخلهم بالمال الذي أنعم الله عليهم به والتولى والإعراض عن طاعة الله سبحانه. وهذه المقابلة تكشف عن المقصود بالبخل وتبين أنه مستعمل على حقيقته من منع المال، لأنه ورد مقابلاً للتصدق بالمال.

وذكر المتعلق في قوله تعالى: "بخلوا به" فيه إشارة إلى أن البخل كان داءً قديماً فيهم، فهم مطبوعون على البخل ثم ضموا إلى بخلهم القديم البخل بهذا الشيء الذي عاهدوا الله عليه فهم بخلوا به كما بخلوا بغيره.

^(٤٦)يراجع مفاتيح الغيب ج ٨ ص ١٠٣، ١٠٤ وتفسير القرطبي ج ٤ ص ٣١٣٤، ص ٣١٣٥ والبحر المحيط ج ٥ ص ٧٥ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٣، ص ٣٧٤ وروح المعاني ج ٥ ص ٣٣٢ إلى ص ٣٣٤ والتحرير والتنوير ج ٦ ص ٢٧٢.

ولو قيل: "بخلوا" بدون قوله: "به" لدل ذلك على حدوث البخل منهم فى هذا الوقت بالذات ولا يدل على أنهم كانوا بخلاء من قبل وعبر بالجملة الاسمية "وهم معرضون" لبيان أن عادة الإعراض ثابتة لهم ومستمرة فيهم^(١٧).

وقوله بعد ذلك: "فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتَهُ" [الاية ٧٧] يدل على أنهم زادوا فى النفاق واستمروا عليه حتى الموت، وهذا يؤكد أن هذه الصفات كانت فى المنافقين^(١٨).

٤ - وقوله تعالى: "إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِنْ يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّرَ أَصْفَانَكُمْ، هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لَتَتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنَى وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ" [سورة محمد ٣٦ : ٣٨]

فى قوله تعالى: "إنما الحياة الدنيا لعب ولهو" قصر للحياة الدنيا على صفتى اللعب واللهو باعتبار أن هذا أغلب شأن أهلها.

واللعب: ضد الجد وهو ما يشتغل به الإنسان ولا يكون فيه ضرورة فى الحال ولا منفعة فى المال، واللعب قد يكون للتأديب كاللعب بالشطرنج وغيره فهو لا يثنى الإنسان عن أشغاله المهمة.

أما اللهو فهو كل ما يشغل المرء من هوى وطرب ونحوهما فيتشاغل به ويففل عن غيره مما يهمه، فاللهو لعب لا يعقب نفعا وسمى لهواً لأنه يشغل عما يعنى من قولهم: ألهاى الشئ أى: شغلنى^(١٩).

^(١٧) يرجع إرشاد العقل السليم ج ٤ ص ٨٥ وروح المعانى ج ٥ ص ٣٣٣.

^(١٨) إراجع تفسير القرطبى ج ٤ ص ٣١٣٥.

والقصر فى الآيه على جهة المبالغة وكأنه لا ينظر إلى غير ذلك من أوصاف الحياة الدنيا، لقلتها وعدم تعلق قلوب الناس بها. ويرى الطاهر بن عاشور - رحمه الله - أن "الإخبار عن الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو على معنى التشبيه البليغ، شبهت أحوال الحياة الدنيا باللعب واللهو فى عدم ترتب الفائدة عليها، لأنها فانية منقضية والآخرة هى دار القرار" (٥٠).

ولا يظهر - لى - التشبيه الذى رآه، لأن المعنى - والله أعلم بمراده - هو بيان غالب أحوال الدنيا، وهو قريب من قولنا: الحياة الدنيا فناء أو خراب ومثله قولنا: فلان شجاع أو فلان كسول، فالتشبيه لا يكون مراداً فى مثل هذا، لأننا نذكر صفة الشئ. وصفة الشئ لا تكون تشبيهاً، لأنها ليست أمراً مغايراً للذات يراد إلحاق الشئ به، تأمل فى قوله الناس: الدنيا فانية وقولهم: الدنيا كأمرأة لعبوب، ففناء الدنيا صفة حقيقية لها، والمرأة اللعوب شئ آخر يراد تشبيه الدنيا به.

إن الآيه المباركة تقر حقيقة الدنيا وقلة قيمتها، ويؤكد ذلك الإخبار عنها بالمصدر "لعب ولهو" فهى عين اللعب واللهو وفى هذا التعبير مافيه من المبالغة فى وصف حقارتها على ما هو معلوم فى بلاغة الإخبار بالمصدر.

والتعبير بالشرط واختيار "إن" دون غيرها من أدوات الشرط فى قوله تعالى: "وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم" وقع مناسباً لذكر اللعب واللهو وكأن الإيمان والتقوى أمر قليل ونادر إذا قيس بكثرة غفلة الناس

(١١) يراجع مفاتيح الغيب ج ١٤ ص ٢٩٨ والفروق اللغوية ص ٢٦٨ وتراجع المادتان فى لسان العرب.

(٥٠) التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٣٣.

فى هذه الدنيا. قال تعالى: "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ" [يوسف: ١٠٣]

والخطاب لكل من يتأتى خطابه من الخلق إنساً وجنساً. وقوله تعالى "ولا يسألكم أموالكم" معطوف على جواب الشرط والإضافة فى "أموالكم" للاستغراق، فالله سبحانه نفى ذلك، أى: لا يسألكم جميع أموالكم وإنما يسألكم شيئاً يسيراً منها وهو الزكاة المفروضة وهى شئ يسير إذا قيس بالمال كله، وفى الآية مقابلة حسنة لأن المعنى يعطكم كل أجوركم ويسألكم بعض أموالكم^(٥١).

وجملة: "إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا" تعليل لنفى سؤاله تعالى كل أموالهم، لأنه إن حدث ذلك قلن يخرجوها بسبب بخلهم الشديد.

يقول الفخر الرازى - رحمه الله - عن سر اختيار الفاء دون الواو فى قوله تعالى: "فيحفكم" الفاء فى قوله تعالى: "فيحفكم" للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانا لشح النفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر^(٥٢).

ووقوع الإحفاء عقب السؤال معناه أن يكثر الطلب ويمتد زمنه عند السؤال أو يتكرر الطلب فى كل الأوقات، والإحفاء: الإلحاح فى المسألة والإكثار فى الطلب وهو مثل الإلحاف^(٥٣).

وهذا كلام صادر عن عزة الربوبية، لأن فيه إحاطة بأسرار هذه النفس البشرية وكشف عن حقيقتها الخفية. "وهذا النص يوحى بحكمة

^(٥١)راجع روح المعانى ج ١٣ ص ٢٣٥.

^(٥٢)مفاتيح الغيب ج ١٤ ص ٢٩٩.

^(٥٣)راجع المادة فى المفردات واللسان.

اللطيف الخبير كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس، ويكشف عن التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين ومراعاته للفطرة، وتناسقه مع بشرية النفس بكل استعداداتها وطاقاتها وأحوالها^(٥٤).

والبخل صفة سيئة تجلب العداوات وتوقظ الضغائن ولهذا حسن عطف قوله: "ويخرج اضغانكم" على جملة الجواب، فالأحقاد والعداوات تظهر دائما حين يزيد حب الناس للمال ويخلهم به.

وفاعل "يخرج" ضمير عائد على اسم الجلالة، ويجوز أن يعود على البخل على الإسناد المجازى بعلاقة السببية، لأنه سبب في إخراج الضغائن، وهذا الإسناد يظهر قوة السبب وشدة تأثيره^(٥٥).

ثم ذكر الله تعالى دليلاً على أنه لو أحفاهم لبحلوا وكرهوا العطاء فقال: "هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل" وجاءت "ها" في أول الجملة حيث دخلت على ضمير الرفع المنفصل المخبر عنه باسم الإشارة للتنبيه وإفادة التوكيد^(٥٦).

وقوله تعالى: "ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه" فيه قصر صفة البخل على نفس صاحبها بمعنى أن ضرر ذلك البخل عائد عليه وحده، وهذا قصر قلب، فيه قلب لاعتقاد صاحبه حيث كان يحسب أن إمساك المال سيفيده فإذا به يعود عليه بالخسارة لأنه حرم نفسه غاية الخير وهو رضوان الله عليه^(٥٧).

(٥٤) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٣٠٢.

(٥٥) إراجع الكشف ج ٣ ص ٤٦٠ وإرشاد العقل السليم ج ٨ ص ١٠٢ وحاشية الشهاب

ج ٨ ص ٥٢ وروح المعاني ج ١٣ ص ٢٣٦.

(٥٦) إراجع الكشف ج ٣ ص ٤٦٠ والبحر المحيط ج ٨ ص ٨٤ وروح المعاني ج ١٣

ص ٢٣٦ ومغنى اللبيب ج ٢ ص ٣٤٩.

(٥٧) إراجع التحرير والتنوير مجلد ١٢ ص ١٣٧.

وتعريف الطرفين فى قوله تعالى: "والله الغنى وأنتم الفقراء" أفاد القصر حيث قصرت صفة الغنى الكامل على لفظ الجلالة ونفيت عمن سواه من خلقه، وهو قصر حقيقى تحقيقى، وقصرت صفة الفقر على الضمير "أنتم" الراجع للبشر، ونفيت عن موصوف معين وهو لفظ الجلالة وهو قصر إفراد، وقد أفادت الجملة الثانية التوكيد لمعنى الجملة الأولى. وختمت الآية المباركة بقولة تعالى: "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" على طريقة الشرط والجزاء ويلاحظ أن أسلوب الشرط تكرر أربع مرات فى هذه الآية، كما يلاحظ كثرتة فى النظم القرآنى عموماً.

وهذه طريقة أسلوبية تحتاج إلى كثير من الدراسات البلاغية المتأنية التى تكشف كثيراً من أسرار هذا التعبير، وتبين سر بناء المعانى وارتباطها وتسلسلها، وتظهر ما يفيد أسلوب الشرط من التشويق إلى الجواب والاهتمام به، وتكشف سر تنوع جواب الشرط بين الجمل الفعلية والجمل الإسمية ومدى ارتباط هذا التنوع بالسياق والمقام، وتكشف أيضاً عن سبب اختيار أداة عطف دون أخرى، فى الجمل التى تعطف على جمل الجواب وسر تنوع إعراب الجمل المعطوفة على الجواب.

قلت: إن هذه الطريقة الأسلوبية تحتاج إلى كثير من الدراسات الجادة، لأنها ظاهرة قرآنية تتجلى فيها عظمة وروعة هذا القرآن، مثل غيرها من الطرائق الأسلوبية الأخرى.

وفى تراث سلفنا الصالح من أئمة التفسير والبلاغة أسس ثابتة يعتمد عليها فى هذا الباب، ويمكن أن نضيف إليها ما يحقق النفع الكثير والخير العميم فى إدراك لطائف هذه اللغة الشريفة، قلت إن فى تراث

سلفنا أسس ثابتة وجهود صادقة لأنهم لم يهملوا الحديث عن هذا الأسلوب.

- فقد ذكر سعد الدين التفتازانى فى مطوله أن تحقيق الكلام عن أسلوب الشرط والجزاء من نفائس المباحث وذكر اعتبار المنطقيين واعتبار أهل اللغة وقرّر أن بناء الكلام فى الشرط والجزاء بناء للمسبب عن سببه وذكر الفروق بين أدوات الشرط، ولكنه - رحمه الله - ناقش القضية مناقشة فلسفية خرجت فى كثير من الأحيان عن ذوق البلاغة وروح العربية إلى المسائل المنطقية والطرق البرهانية على حد تعبير السيد الشريف رحمه الله^(٥٨).

وذكر العصام فى الأطول أن الحديث عن الشرط والجزاء من المباحث النفيسة وأن فى كلام النحويين والميزانيين معنى المنطقيين اعتبارات لطيفة^(٥٩).

وكان الإمام عبدالقاهر - رحمه الله - أنفذ حساً وأبعد نظراً وأرقى ذوقاً وأعرق فكراً فى فهم ارتباط الجزاء بالشرط وأن الكلام لا يعد تاماً إلا بمجموعهما، لأن الجمل تتوقف على بعضها ولا تستقل بنفسها. قال - رحمه الله - : " الشرط والجزاء جملتان، ولكننا نقول: إن حكمهما حكم جملة واحدة من حيث دخل فى الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد فى امتناع أن تحصل به الفائدة فلو قلت: "إن تأتني" وسكت لم تفد، كما لا يفيد إذا

^(٥٨)يراجع المطول لسعد الدين وحاشية السيد الشريف عليه من ص ١٥٢ إلى ص ١٧٣.

^(٥٩)يراجع الأطول للعصام ص ١٧٤ إلى ص ١٩٠.

قلت: "زيد" وسكت فلم تذكر اسماً آخر ولا فعلاً، ولا كان منوياً في النفس معلوماً من دليل الحال^(٦٠).

وقد فصل الكلام في هذا الأمر وزاده بيتان في "دلائل الإعجاز" حيث تحدث عن عطف جملة على أخرى ثم عطف مجموع جمل على مجموع جمل أخرى سواء أكان هذا في جمل الشرط أم كان في غيرها، وبين أن هذا فن من القول خاص ودقيق ثم قال: "وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام وهو ما تتحد اجزاؤه حتى يوضع وضعاً واحداً، فاعلم أنه النمط العالى والباب الأعظم والذي لا ترى سلطان المزيه يعظم فى شئ كعظمه فيه"^(٦١).

وقد نبه الفخر الرازى - رحمه الله - إلى أمر دقيق يتعلق بالمعطوف على جواب الشرط وأحواله الإعرابية وأساراه البلاغية وذلك فى قوله: "وقوله تعالى "ثم لا يكونوا أمثالكم" فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهى أن النحاة قالوا: يجوز فى المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم الجزم والرفع جميعا قال الله تعالى ها هنا: "وإن تتولوا يسبتل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" بالجزم. وقال فى موضع آخر: "وإن يقاتلوكم يولئوكم الأذبار ثم لا ينصرون" آل عمران/ ١١١ بالرفع بإثبات النون. وهو مع الجواز ففيه تدقيق وهو أن ههنا لا يكون متعلقا بالتولى، لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتى بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عا صين وكون من

(٦٠) أسرار البلاغة ج ١ ص ٢٢٠ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ط مكتبة القاهرة.

(٦١) دلائل الإعجاز ص ٩٥ ويراجع ص ٩٥، ص ٢٤٤ إلى ص ٢٤٨.

يأتى بهم مطيعين. وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون فلم يكن للتعلق هناك وجه فرغ بالابتداء وهاهنا جزم للتعلق^(١٢).

وخلاصة ما قصده الرازى - فى فهمى - أن آية سورة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فيها تعليق أى: ارتباط بين المعانى، وترتب على ذلك الجزم الذى يدل على هذا التعليق، لأن المعنى - والله أعلم بمرداه - أن المجئ بأولئك القوم الذى يستبدلون ويكونون غيرهم مشروط بتولى هؤلاء وإعراضهم فإن لم يوجد تولى لا يوجد استبدال. أما آية سورة "آل عمران" السابقة فتبين أن كونهم لا ينصرون لا تعليق فيه فلا يوجد اشتراط يترتب عليه أن يتحد الإعراب.

ويوجد الجزم فى المعطوف على جواب الشرط، لأن كونهم لا ينصرون أمر ثابت وحق واقع سواء قاتلوا المؤمنين أم لم يقاتلوهم لأنهم كفروا بالله فاستحال نصرهم.

فمعنى كلام الفخر الرازى - رحمه الله - إنه إذا كان هناك تعلق وجب الجزم واتحد الإعراب ليكون ذلك دليلاً على التعلق، وإن لم يكن تعلق وارتباط واستقلت معانى الجمل جاء الرفع دليلاً على ذلك الاستقلال و"ثم" فى قوله تعالى "ثم لا يكونوا أمثالكم" لبعدها الرتبة، لأن رتبتهم ستكون أعلى وأرفع من ربتكم^(١٣).

٥ - وقوله تعالى: "الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" [الحديد: ٢٤] ورد فى بيان صفات المنافقين وهذه

(١٢) مفاتيح الغيب ج ١٤ ص ٣٠١، ٣٠٢.

(١٣) إراجع حاشية الشهاب ج ٨ ص ٥٢ وروح المعانى ج ١٢ ص ٢٣٦ والتحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٣٩.

الآية متشابهة مع آية سورة النساء التي تناولناها من قبل والتي دارت حول صفات اليهود.

وجاء التشابه بينهما من حيث بيان حال كلا الفريقين فكل فريق يبخل بما عنده وفي نفس الوقت يأمر غيره بالبخل، والتعبير بالموصول في الآيتين يدل على شهرتهم بذلك.

وهناك فروق دلالية بين الآيتين تجعل لكل آية خصوصيتها التعبيرية، ومن هذه الفروق: أن آية سورة النساء ذكرت وصفا آخر لليهود وهو قوله تعالى: "ويكتمون ما آتاهم الله من فضله" وهذا الكتمان خاص بما أخفوه من دلائل نبوة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذا الكتمان كفر ولذلك ختمت الآية بالتهديد والوعيد في قوله تعالى: "وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا"، وهذا يختلف عن قوله تعالى في آخر آية سورة الحديد: "ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد" وفاصلة آية سورة الحديد تؤكد أن البخل وارد على حقيقته من منع إنفاق المال الواجب، لأن صفة الغنى وردت مقابلة لصفة البخل، ولو كان البخل في الآية مستعملاً في شئ غير منع المال ككتمان العلم مثلاً لكان المقابل لذلك عليم خبير وليس "غنى حميد".

وقوله تعالى: "الذين يبخلون" "بدل من كل مختال" فإن المختال بالمال يضمن به غالباً ويأمر غيره به، أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله: "ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد" وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق^(٦٤).

(٦٤) إرشاد العقل السليم ج ٨ ص ٢١٢.

وهذه الآيه المباركة تفضح المنافقين الذين عظمت الدنيا في أعينهم فبخلوا بأداء حقوق نعم الله عليهم ولم يكتفوا بذلك بالبخل بل أمروا غيرهم به ورغبوهم فيه. ويبدو أنهم أمروا بالبخل على الحقيقة، وقيل: كانوا قدوة في البخل فكأنهم أمروا به^(٦٥).

وحمل الكلام على الحقيقة هو الظاهر - والله أعلم بمراده - لما هو معلوم من أحوال المنافقين في كل زمان ومكان فهم يشبطون همم الناس عن الكرم والجود، ويدعون أنهم ناصحون مخلصون والتعبير بالمضارع "يبخلون" و"يأمرون" يدل على تجدد وحدث هذه الصفات فيهم، فهي متكرره ومتجدده

وقوله تعالى: "ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد" جملة شرطية محذوفة الجواب لوجود ما يدل عليه وتقدير الجواب - والله أعلم بمراده - ومن يتول فلا يضر الله شئنا وفي الآيه قصر بتعريف الطرفين، حيث قصرت صفتا الغنى والحمد على اسم الجلالة قصراً حقيقاً تحقيقاً فلاغنى في الحقيقة إلا الله وحده هو سبحانه وحده لا يحتاج إلى أحد، ولا محمود بكل صفات المحامد إلا الله وحده، لأن له صفات الكمال وهو الذي يعطى من غير حساب وضمير الفصل يؤكد هذا القصر^(٦٦).

٦- وقوله تعالى: "فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى" [الليل ٥: ١٠]

^(٦٥)يراجع البحر المحيط ج ٨ ص ٢٢٤.

^(٦٦)يراجع التحرير والتنوير ج ١٣ ص ٤١٤ و ٤١٥.

جاء بيانا وتفصيلاً للإجمال السابق فى قوله تعالى: "إِنَّ سَفْيَكُمْ لَشَتَّى" [الليل: ٤] وقد انحصر التفصيل فى فريقين: فريق ميسر لليسرى وفريق آخر ميسر للعصرى^(١٧).

و"أما" حرف شرط وتفصيل وتوكيد، وهى بمعنى: مهما يكن من شئ، والتفصيل غالب أحوالها والمقصود بإفادتها التوكيد أى: توكيد وقوع جواب الشرط، وقد صرح بذلك الزمخشري فذكر أن فائدة "أما" فى الكلام أنها تعطيه فضل توكيد وقد استدل على ما ذكره بقول سيبويه "مهما يكن من شئ فزيد ذاهب" فقد علق ذهابه على وجود شئ ما، وهو محقق والمعلق على المحقق محقق^(١٨).

والمراد بالإعطاء فى الآية بذل المال، وحذف المفعول - هنا - لأن المقصود الثناء على المعطى دون التعرض للعطية أو المعطى، وهذا مما ينزل فيه المتعدى منزلة اللزوم ويجوز أن يكون سبب الحذف العلم بالمفعول، لإشتهار استعماله فى إعطاء المال، وكذلك حذف مفعول "اتقى" لأن المقصود ثبوت التقوى أو حذف العلم بالمفعول^(١٩).

^(١٧) المرجع السابق ج ١٥ ص ٣٨١.

^(١٨) يراجع معنى اللبيب ج ١ ص ٥٦، ٥٧ وحاشية الصبان على شرح الأشموني ج ٤ ص ٤٤ إلى ص ٤٧ ط الحلبي. وقد أشار المبرد إلى أن "أما" فيها معنى الجزاء وفيها التوكيد فقال: "لأن أما فيها معنى الجزاء واقع... ألا ترى أنك تقول: أمازيد فمنطلق فأما اليتيم فلا تقهر" فالمعنى: مهما يكن من شئ فلا تقهر اليتيم" المقتضب ج ٢ ص ٦٨، ٦٩ تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

^(١٩) يراجع البحر المحيط ج ٨ ص ٤٧٨ وروح المعاني ج ١٥ ص ٣٦٦ و ص ٣٦٧ ويراجع الفتوحات الإلهية ج ٨ ص ٥٦٩ والتحرير والتنوير ج ١٥ ص ٣٨٢.

وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في المراد "بالحسنى" وكلها متقاربة، وأشهر ما قيل فيها: أنها الجنة فقد ذكر الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره أن أحد الصحابة رضوان الله عليهم - سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الحسنى فقال (صلى الله عليه وسلم) "الحسنى الجنة" (٧٠).

وقوله تعالى: "فسيبسه لليسرى" جاء جزاء لكل ما تقدم من أعمال البر المذكورة في السورة من الإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى. قال الزمخشري - رحمه الله: "فسيبوه لها من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وأجمها ومنه قوله عليه السلام: كل ميسر لما خلق له والمعنى: فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه" (٧١).

و"اليسرى" هي الجنة - عند جمهور المفسرين - والتعبير عنها باليسرى وازد على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الحالية حيث أطلق الحال وأريد المجل وبلاغة هذا التعبير أنه يبين صفة الجنة فهي لا شقاء فيها ولا تعب، وإنما هي راحة فوق راحة يتقلب أهلها في نعيم لا يزول (٧٢).

(٧٠) يراجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٥٨.

(٧١) الكشف ج ٤ ص ٢١٧.

(٧٢) يراجع حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٦٨ وروح المعاني ج ١٥ ص ٣٦٧.

ثم جاءت المقابلة بعد ذلك بأربع صفات أخرى مضادة للصفات السابقة قال تعالى: "وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى" [الآيات ٨، ٩، ١٠]

وقبل دراسة المقابلة أتوقف أمام هذا الترتيب البليغ أعنى: ترتيب الصفات السابقة ثم ترتيب الصفات المضادة لها، لأن في هذا الترتيب إعجازاً يسترعى الانتباه والتأمل.

فقد قدم في الآيات الإعطاء - وهو بذل المال - على التقوى وقدمت التقوى على التصديق بالحسنى وفي المقابلة روعى ذلك فقدّم البخل وهو منع إنفاق المال على الاستغناء - ومعناه الكفر وعدم التقوى - وقدم الاستغناء على التكذيب بالحسنى.

وقد قرأت للإمام الألوسى عند تفسيره لهذه الآيات كلاماً طيباً يدل على أنه وقف يتأمل هذا الترتيب وحاول أن يتعرف على أسراره، وخلص ما ذكره - رحمه الله - أن في ترتيب هذه الصفات عطف للخاص على العام، ثم نقل كلاماً لأبى السعود - رحمه الله - مفاده أن في الآيات ترقى من الأدنى للأعلى، للإيدان بأن كل وصف أصيل فيما ذكر بعده^(٧٣).

ويمكن أن يضاف إلى ما ذكره هذان العالمان الجليلان - رحمهما الله - أن في الآيات تقديم المسبب على السبب، فالإعطاء مسبب عن

^(٧٣)يراجع روح المعاني ج ١٥ ص ٣٦٧ ثم إرشاد العقل السليم ج ٩ ص ١٦٦ و ص ١٦٧.

التقوى، والتقوى مسببة عن الإيمان الراسخ بقاء الله تعالى ورجاء ما عنده، وهذا مراعى فى المقابلة أيضا فالبلخل مسبب عن الاستغناء بشهوة المال عما عند الله من نعيم الآخرة وهذا الاستغناء مسبب عن عدم الإيمان باليوم الآخر.

والذى يرشد إلى القول بتقديم المسبب على سببه مراعاة سبب نزول هذه الآيات ومراعاة السياق الذى يوضح ويفصل قول الله تعالى: "إن سعيكم لشتى" (٧٤).

فالآيات راعت الصفات الدالة على الإيمان والصفات الدالة على الكفر لما يترتب على ذلك من أمور عظيمة فى مستقبل الدعوة.

وتقديم الإعطاء فى هذا المقام له أهمية خاصة لأنه أوضح دليل على التقوى وأظهر علامة على قوة الإيمان. كما أنه أمانة من أمارات التكافل الاجتماعى الذى يدل على التراحم والإيثار فى هذا الدين الجديد.

(٧٤) هذه الآيات كما ذكر المفسرون نزلت فى أبى بكر الصديق "رضى الله عنه" وأمية بن خلف وذكر الزمخشري بدل أمية أبا سفيان بن حرب وهو مردود لأن أبا سفيان آمن وحسن إسلامه. وإذا كانت العبرة - كما قيل بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهذا لا يمنع من تأمل سبب النزول الذى يبين حال الناس أو بمعنى أدق حال أشهر من وقفوا مع الدعوة الإسلامية أو من وقفوا ضدها فى أيامها الأولى. يراجع الكشف ج ٤ ص ٢١٧ ومفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٤٥٠ وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٧٤٢١ وص ٧٤٢٢ والبحر المحيط ج ٨ ص ٧٨٤ وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٢٠، ٥٢١ وأسباب النزول للسيوطى ص ٢١٥ وروح المعاني ج ١٥ ص ٣٦٨.

وإعطاء المال هو أول مواجهة حقيقية بين الإيمان والكفر، لأن الجهاد بالمال سوف يبني دولة جديدة تتصدى لدولة الكفر تصدياً شديداً يمنع زعماءها من الهيمنة والسيطرة التي فرضوها على فقراء المسلمين وضعفائهم فيصبح فقراء المسلمين وضعفاؤهم أشدء على الكفار كل الشدة ومستغنين عنهم كل الاستغناء.

والمقابلة في هذه الآيات جاءت بين معاني كثيرة فالبخل مقابل للإعطاء، والاستغناء مقابل للتقوى والتكذيب بالحسن مقابل للتصديق بها، والعسرى مقابلة لليسرى. والمقابلة بين كل هذه الصفات واضحة إلا بين "اتقى" و"استغنى" ففيها شئ من الخفاء.

وقد حاول المفسرون بيان المراد بهذين الوصفين فذكروا أن المراد بـ"استغنى" زهد فيما عند الله فكأنه استغنى عنه فلم يتق، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة فاتغمس في الضلال ولم يتق فالاستغناء لازم لعدم التقوى أو مسبب عنه، ومنهم من فسر الاستغناء بالكفر أو الانشغال بالشهوات المحرمة فكأنه مضاد للتقوى بظاهر اللفظ^(٧٥).

والمقابلة بين هذه المعاني تظهر الفرق الواضح بين هذين الحالين المختلفين لمن آمن ولمن كفر، كما أنها تقرر وتؤكد هذه الصفات.

(٧٥) يراجع الكشف ج ٤ ص ٢١٧ ويراجع شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٩٩، ٣٠٠.

و"آل" فى "اليسرى" و"العسرى" للعهد، لأن المراد بهما عند أئمة التفسير والله أعلم بمراده: الجنة والنار وعبر عنهما بذلك على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الحالية حيث ذكر الحال وأريد المحل ويجوز أن تكون العلاقة فيهما المسببة أو اللزومية.

وعلاقة الحالية أظهر لأنها تكشف عن حال أهل الجنة وحال أهل النار، وتبين الحياة التى يحيها كل فريق منهما وهى أقرب إلى المقابلة التى كشفت أحوال كل فريق. وعبر بالسين فى "فسيئره" لأن الثواب والعقاب واقعان فى الآخرة والسين حرف استقبال يدل على هذا المعنى وقيل: هى للتوكيد^(٧١). وقد فصلنا دلالتها على التوكيد عند حديثنا عن آية سورة "آل عمران" السابقة.

و"ما" فى قوله تعالى: "وما يُغنى عنه ماله إذا تردى" للنفس ويجوز أن تكون للاستفهام الإنكارى، والمعنى: لاشئ ينفعه إذا تردى^(٧٢).

والبخل فى هذه الآيات وارد على بابه من منع إنفاق المال ودليل ذلك أنه وقع مقابلاً لأعطى وهى مشتهرة فى إعطاء المال خاصة إذا حذف مفعولها، وقد جاء فى السورة قوله تعالى: "وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ

^(٧١) يراجع روح المعانى ج ١٥، ص ٣٦٧.

^(٧٢) يراجع الكشف ج ٤ ص ٢١٧ ومفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٤٥٥ والبحر المحيط ج ٨ ص ٤٧٨ وروح المعانى ج ١٥ ص ٣٦٨.

إِذَا تَرَدَّى " [الليل: ١١] وهذا يؤكد أن الإعطاء والبخل المذكورين إنما يتعلقان بالمال خاصة^(٧٨).

مما تقدم من دراسة مواقع البخل في القرآن الكريم يظهر للباحث شئ يمكن الاطمئنان إليه - بتوفيق الله - وهو: أن البخل معناه منع إعطاء المال الواجب هذا هو المعنى الحقيقي للفظ فإذا استعمل في دلالة أخرى غير منع بذل المال يكون هذا الاستعمال مجازياً.

بيان ذلك: إذا قلنا: فلان بخيل وأردنا لا يبذل المال يكون الكلام حقيقة، وإذا استعمل لفظ البخل في دلالة أخرى فقلنا: بخل فلان بعلمه نريد منع العلم يكون الكلام مجازاً بالاستعارة حيث شبه منع العلم بالبخل بالمال واستعير المشبه به للمشبه على جهة الاستعارة التصريحية وإذا قلت: بخل زيد وليس معنى قرينة ينصرف الكلام إلى الحقيقة. وإذا قلت: بخل زيد ومعنى قرينة حالية أو لفظية كأن أقول: بخل زيد بعلمه أو بنصحه، أو تكون القرينة حالية كأن يسأل أحد من الناس زيدا عن مسألة فلا يجيب وهو يعلم فيقال: بخل زيد ينصرف الكلام إلى الاستعارة كما ذكرنا.

والذى يطمئن إليه الباحث بعد هذا كله أن كل ما ورد في القرآن الكريم من استعمال لمادة البخل اسماً أو فعلاً ماضياً أو مضارعاً إنما كان استعمالاً حقيقياً ولم يرد مجازاً. هذا والله أعلى وأعلم.

^(٧٨)يراجع المحرر الوجيز ج ٥ ص ٤٩٠ وإرشاد العقل السليم ج ٩ ص ١٦٦ و ١٦٧ وروح المعاني ج ١٥ ص ٣٦٦.

المبحث الثانى

خصائص النظم القرآنى فى مواقع الشح

نعيش الآن مع مواقع "الشح" فى القرآن الكريم ونستعين بالله سبحانه فى التعرف على أسرار نظمها فى كتابه.

١ - قال الله تعالى: "وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إغراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأخضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً" [النساء: ١٢٨]

جاءت هذه الآية المباركة على طريقة الشرط والجزاء ففيها شرطان وجوابهما، وقد ذكرنا بلاغة هذه الطريقة من قبل و"امرأة" فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده، والتقدير: وإن خافت امرأة خافت، لأن "إن" حرف شرط مختص بالدخول على الأفعال دون الأسماء، وحذف الفعل بعد "إن" لدلالة المذكور عليه وهذه الطريقة الأسلوبية تفيد الإيجاز والتوكيد^(٧٩).

والخوف فى الآية على بابه لأنه لا يحصل إلا عند ظهور العلامات الدالة على وقوعه كأن يقول الرجل لامرأته كلا ما يدل على النشوز والإغراض مثل: إنك دميمة أو إنك كبيرة وأريد أن أتزوج شابة صغيرة وهكذا ويجوز أن يكون الخوف فى الآية محمولاً على الظن والتوقع الذى يحدث فى النفس قبل حصول الشئ، وحمل الخوف فى الآية على وقوع النشوز والإغراض دون توقعه هو الظاهر وتأويله

^(٧٩)يراجع مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٤٧٣ وتفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٠٦٤ وروح المعانى ج ٣ ص ١٥٥ ويراجع شروح التلخيص ج ٢ ص ٩، ١٠.

بالوقع والظن ترك للظاهر بدون حاجة كما ذكر الفخر الرازى وأبوحيان وغيرهما^(٨٠).

والبعل: الزوج وتطلق هذه الكلمة فى الأصل على السيد وسمى الزوج بذلك، لكونه كالسيد لزوجته^(٨١).

والنشوز: أن يتجافى عنها ويمنعها نفسه ونفقتة ومودته ويؤذيها بسبب أو ضرب.

والإعراض: أن يعرض عنها فيقل محادثتها وموانستها لسبب من الأسباب وهو أخف من النشوز^(٨٢).

و"أل" فى "والصلح خير" للعهد عند أكثر المفسرين يعنى: الصلح المعهود بين المرأة وزوجها حين يقع النشوز والإعراض خير من الفراق أى: الطلاق الذى يترتب على النشوز والإعراض أو خير من النشوز والخصومة "فخير" على بابها للتفضيل، لأن الطلاق فيه خير أيضاً وقد أباحه الإسلام حين تستعصى المودة والرحمة ولا يمكن استمرار الحياة بين الزوجين، فحدوث الطلاق فى هذه الحالة خير لأن فيه حماية الزوجين أو أحدهما من الوقوع فى الضرر.

وهناك من يرى أن "أل" للجنس والمعنى أن حقيقة الصلح الذى تسكن به النفوس ويزول به الخلاف ويندرج تحته الصلح بين الزوجين خير من

^(٨٠) راجع مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٤٧٣. والبحر المحيط ج ٣ ص ٣٧٩ وروح المعاني ج ٣ ص ١٥٥.

^(٨١) تراجع المادة فى المفردات واللسان ويراجع التحرير والتنوير ج ٢ ص ٣٩٣ وج ٣ ص ٢١٥.

^(٨٢) راجع الكشف ج ١ ص ٣٠٢ والبحر المحيط ج ٣ ص ٣٧٩ وتراجع مادتي نشر وأعرض فى اللسان

الخير، فلا يراد بخير التفضيل بل تقرير الشئ وبيان حاله وخير على هذا التقدير يكون مصدراً أو صفة.

والأرجح عند الباحث الوجه الأول لأن فيه اعتناءً بالترغيب فى المصالحة بين الزوجين والحث عليها وهو المناسب للسياق الذى يدعو إلى تحقيق المودة بين الأزواج وقد كرر لفظ الصلح فى الآيه للحث على هذه الفضيلة.

ونصب "صلحاً" فى قوله تعالى "أن يصلحاً بينهما صلحاً" على إسقاط حرف الجر والتقدير: بصلح^(٨٣) أى: بأى شئ يمكن أن تقع به المصالحة، ونفى الجناح فى قوله "فلا جناح عليهما" يؤكد الحث على هذا الصلح بعينه^(٨٤).

ومن لطيف نظم الآية ذكر "الشح" فى قوله تعالى: "وأحضرت الأنفس الشح" فهذا اللفظ هو الأنسب فى هذا السياق لأن هذه الخلافات التى تقع بين الأزواج تدعو إلى ظهور الشح.

يقول أبوحيان - رحمه الله -: "هذا من باب المبالغة جعل الشح كأنه شئ معد فى مكانه وأحضرت الأنفس وسيقت إليه، ولم يأت: وأحضر الشح الأنفس فيكون مسوقاً إلى الأنفس بل الأنفس سيقت إليه، لكون الشح مجبولاً عليه الإنسان ومركزاً فى طبيعته"^(٨٥).

فالتركيب القرآنى جعل الأنفس هى التى تساق الى الشح. وأصل الفعل "حضر" يتعدى إلى مفعول واحد مثل قولهم: حضر القاضى اليوم

^(٨٣) هناك وجوه إعرابية أخرى فى "صلحاً" تراجع فى التبيان للعبرى ج ١ ص ١٩٧.
^(٨٤) يرجع الكشف ج ١ ص ٣٠٢ والمحرر الوجيز ج ٢ ص ١٢٠ ومفاتيح الغيب ج ٥ ص ٤٧٥ والبحر المحيط ج ٣ ص ٣٧٩ وإرشاد العقل السليم ج ١ ص ٢٣٩ والتحرير والتنوير ج ٣ ص ٢١٦ و ٢١٧.
^(٨٥) البحر المحيط ج ٣ ص ٣٧٩ وص ٣٨٠.

امرأة وأحضرت يتعدى إلى مفعولين تقول: أحضرت زيدا الطعام. فالفعل تعدى بهمزة النقل والتعدية إلى مفعولين. الأول: "الأنفس" الذى قام بعد- بناء الفعل للمفعول- مقام الفاعل، والمفعول الثانى هو: الشح^(٨٦).

وبنى الفعل للمفعول لبيان سرعة حضور الأنفس للشح فى حال النشوز والإعراض، أو لأن الأهم هنا هو الحدث دون النظر إلى محدثه، ويجوز أن يكون الحذف للعلم بالفاعل وقد حاول الألوسى- رحمه الله- تقدير الفاعل فقال: "والمراد أحضر الله تعالى الأنفس الشح"^(٨٧).

ولست أرى داعياً ملحاً يدعو الألوسى- رحمه الله- إلى تقدير ما قدره، بل أرى أن إرادة وقوع الحدث وسرعته هو الأهم وإذا لزم تقدير الفاعل فليكن التقدير معتمداً على السياق، فيقدر الفاعل من واقع سياق الآيه، مثل: النشوز والإعراض ويكون الكلام محمولاً على المجاز العقلى بعلاقة السببية، لأن النشوز والإعراض هما السبب الذى قاد النفس إلى الشح، وهذا التقدير هو الأرجح- والله أعلم- لأنه يبين الدافع الذى دفع النفس إلى الشح ويظهر خطورة وجوده وشدة تأثيره وهذه الجملة وقعت اعتراضاً للتنبيه على خطورة الشح وللحث على مخالفة الطبع^(٨٨).

ثم ختمت الآيه بهذا الشرط: "وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً" ترغيباً فى الإحسان والتقوى وذكر الإحسان هنا ينبه الزوجين وغيرهما إلى مزيد بذل عطاء النفس فى مقابلة الشح وفيه بيان أن ذلك من الإحسان والتقوى. وجاء الالتفات إلى الخطاب لتنبيه كل

^(٨٦)التبيين فى إعراب القرآن للعكبرى ج ١ ص ١٩٧ بتصرف قليل ويراجع تفسير

النسفى مجلد ١ ص ٣٦٥ وحاشية الشهاب ج ٣ ص ١٨٥.

^(٨٧)روح المعانى ج ٣ ص ١٥٦.

^(٨٨)يراجع الكشف ج ١ ص ٣٠٢.

من يتأتى خطابه وحته على أن يترفع عن مثالب النفس ويرتقى إلى درجة الإحسان التي تظهر رقة الأخلاق ونقاء النفس وصفاء الروح سواء أكان هذا في جانب الزوجين أم كان في جانب المصلحين. فعلى الجميع أن يترفع فيحسن ويتقى.

وختمت الآية بصفة "الخبير" وهو العالم بما يلطف ويخفى إدراكه لبيان أن هناك من الأسرار والخفايا بين الزوجين ما لا يطلع عليه إلا الله تعالى^(٨٩).

وهذا ينبه الزوجين وينبه - أيضاً - من حضر الصلح إلى وجوب مراعاة هذه الأسرار فلا يصح لأحد أن يكشف ما أراد اللطيف ستره، كي لا يفضح الله أمره وهذه دروس قرآنية ذات قيمة عالية في تحقيق الصلاح والسعادة في المجتمع المسلم الذي ينبغي أن يقوم على: الإحسان والتقوى. اللهم ارزقنا سلامة السريرة وحسن السيرة وأنعم علينا بأخلاق هذا القرآن العظيم.

٢ - وفي قوله تعالى: "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ إِيَّانَا وَلَا يَأْتُونَ النَّبَأَ إِلَّا قَلِيلًا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنَّسَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" [الأحزاب: ١٨، ١٩]

بيان لبعض صفات المنافقين الذين أرادوا صرف الناس عن نصرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والتعبير "بقدر يعلم" يفيد تحقيق

^(٨٩)راجع البحر المحيط ج ٣ ص ٣٨٠ وروح المعاني ج ٣ ص ١٥٧

علم الله تعالى بأعمالهم ومراقبته سبحانه الدائمة لأحوالهم، وفيه تهديد ووعيد شديدين لهم^(١٠).

و"المعوقين" هم المثبطون عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصل الفعل: عاق أى: صرف وحبس ومنه التعويق وهو صرف الناس عن الشئ ومنعهم منه والمعوق اسم فاعل من عَوَّقَ^(١١).

والتعبير باسم الفاعل: "المعوقين"، "القائلين" يفيد أن هذه الأوصاف كانت مستقرة فيهم ومستمرة معهم، وأنه لا أمل فى حصول الإيمان منهم. وقوله: "منكم" يدل على أنهم كانوا مندسين فى صفوف المسلمين وهذا يؤكد أن الآيات نزلت فى المنافقين ولم تنزل فى اليهود كما ورد عند بعض المفسرين.

والتعبير بـ "إخوانهم" يوحى إلى أن هناك من استمع إليهم ومال إلى مقاصدهم. ومن فضل الله على عباده إنه لم يصرح بأسمائهم بل جعلها مستورة حتى يبقى على وحدة الأمة وتماسكها.

إن هذه الجماعة التى قصدها القرآن كانت ضمن صفوف المسلمين وبعبارة أدق كانت مندسة بين الصفوف. والدليل على ذلك أنهم كانوا يأتون بالبأس ضمن صفوف المسلمين ودليل آخر هو قوله تعالى: "منكم" ويبدو أنهم كانوا مستعدين لتكوين جبهة ضد الجماعة

^(١٠)يراجع فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٨٤٠ والتحرير والتنوير ج ١٠ ص ٢٩٣ ومن أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د/ محمد أبو موسى ص ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

^(١١)تراجع المادة فى اللسان.

المسلمة وقد حاولوا أن يستميلوا بعض الأفراد ويغروهم بالاستماع إليهم ويكشف عن هذا قولهم: "هلم إلينا".

وقد كشف الله أسرارهم ووصفهم بأربعة أوصاف واضحة ظاهرة:

الوصف الأول: "لا يأتون البأس إلا قليلاً" أى: لا يحضرون القتال إلا زمناً قليلاً، أو لا يقاتلون إلا قتالاً قليلاً فـ"قليلاً" وصف للزمن أو للفعل، فهم يفعلون ذلك رياء إذا اضطروا إليه ولا قيمة له أصلاً^(١٢)

ومن لطيف نظم الآيه التعبير عن القتال أو الحرب بالبأس الذى معناه: المشقة والعذاب الشديد ومنه البؤس وهو الشدة والفقر^(١٣).

إن القرآن يبرز كرههم الشديد للجهاد فى سبيل الله ويبين شدة وقعه فى نفوسهم، فهم لم ينظروا إليه النظرة المثالية بل كرهوه غاية الكره ونفروا منه أشد النفور، ولأجل ذلك حسن ذكر كلمة "البأس" فى هذا السياق دون كلمة: الحرب أو القتال مثلاً، والبأس: مسبب عن القتال أو لازم له وفى هذا التعبير مجاز مرسل وعبر عنه بذلك للعلّة التى ذكرناها.

الوصف الثانى: "أشحة عليكم" وهذا الوصف جاء متناسباً مع ما قبله وما بعده من أوصافهم التى ذكرها القرآن، إنهم حريصون على منع

^(١٢)يراجع الكشف جـ ٣ ص ٢٣١ والبحر المحيط جـ ٧ ص ٢١٤ وروح المعانى

جـ ١١ ص ١٦١، ١٦٢.

^(١٣)تراجع المادة فى اللسان.

الخير وقد طبعت نفوسهم على ذلك وتحقق هذا فى تعويقهم الناس
وصرفهم عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفى عدم حرصهم على
القتال، لذلك صرح القرآن بالوصف الذى حملهم على كل ذلك
وهو "الشح" فوق ذكره مناسباً غاية المناسبة للسياق والمقام.

و"الشح" كما ذكرنا من قبل هو حرص النفس على منع الخير
سواء أكان موجوداً عند الشخص أم كان عند غيره وسواء أكان عنده
مال أم لم يكن وهذا المعنى يخالف معنى البخل الذى ذكرناه من قبل،
لأنه يختص بمنع المال، كما أن وصف الشح وقع مناسباً لما بعده من
أوصافهم التى ذكرها القرآن ولذلك تكرر ذكر "الشح" فى الآيه وسياق
بيان سر ذلك إن شاء الله.

الوصف الثالث: "فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم
كالذى يغشى عليه من الموت" وهذا الوصف القرآنى يصور هلعهم
الشديد حين وقوع القتال ومجئ هذا الوصف بأسلوب الشرط يدل على
التلازم والترابط بين دوران أعينهم المعبر عن الهلع الشديد والرعب
المؤكد وبين مجئ الخوف وحصول القتال.

والتعبير "بإذا" الشرطية لبيان تحقق وقوع الشرط والجزاء. وتأمل
كيف صور القرآن ضعف قلوبهم وهلع نفوسهم فى قوله: "جاء الخوف"
وكان الخوف شئ يتحرك ويتجه بسرعة إليهم.

إن الفرق واضح وكبير بين من يذهب إلى أرض المعارك فيأتى
القتال وهو بطل مغوار وبين من يفرض عليه القتال وهو جبان خوار.

والخوف شئ معنوى لكن القرآن يصوره فى صورة الجيش القادم من بعيد ليهدد قلوب المنافقين من جديد، إنه يأتى ويذهب ثم يأتى ويذهب ويستمر هكذا ليتلاعب بقلوبهم وعقولهم الفارغة من الإيمان.

وهذا شأن العصاة أصحاب المصالح والأهواء فى كل زمان ومكان لا تهدأ قلوبهم ولا تستقر نفوسهم، إنهم فى رعب دائم من المحاسبة أمام قانون الدنيا، وأمام قانون الضمير - إن وجد - وفى رعب من أشياء أخرى يخشون أن تطلع فجأة عليهم لأنهم طرّقوا أبواب المعاصى التى لا تفتح إلا لمن طرّقها ولا تقفل فى وجه من فتحها إنها مأساة تلحق بكل العابثين الذين لم تستقم خطواتهم لأنهم لم يسيروا فى طريق النجاة!!.

تأمل قول الله: "ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت" إنها صورة واضحة المعالم فيها شكل وحركة وهى فى ذات الوقت تثير السخرية فى نفس القارئ من هذا الصنف الجبان من البشر.

إن القرآن يصور استيلاء الرعب عليهم وتأثيره المباشر على جوارحهم فهى لا تهدأ أبداً، إنهم يحدقون بنظرهم فى كل الجهات لأنهم يتوقعون وقوع المصائب من كل ناحية. القرآن يشبه حركة دوران أعين أولئك المنافقين وهم ينظرون إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحركة دوران عين المحتضر الذى إصابه خوف المصير

المجهول. ووجه الشبه اضطراب الحركة المسبب عن عدم وجود الأمان^(٩٤).

وهذا التعبير القرآنى الذى يصور حالهم الشديد من الرعب يبين - أيضا - انصرافهم عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد تشاغلوا عنه - وهم فى حضرته - بأشياء دارت أعينهم إليها وتشاغلن قلوبهم بها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا فى حد ذاته ذنب خطير وذنم كبير.

والتعبير بـ "تدور أعينهم" مجاز مرسل بعلاقة المحلية حيث عبر بالأعين وأراد الأحداق التى بداخلها، وهذا التعبير فيه ما فيه من المبالغة فى تصوير ما لحقهم من الرعب حيث جعل العيون كلها تدور بما فيها من جفون وأهداب وأحداق ولم يقصر الدوران على حدقة العين وحدها.

والتعبير بـ "تدور" دون تلتفت أو تتحرك يصور الحركة الدائمة التى تظهر فى الدوران أكثر من ظهورها فى التلفت وغيره^(٩٥).

الوصف الرابع: "فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير" وهذا الوصف يصور حالة أخرى من أحوالهم التى تظهر سوء

^(٩٤)راجع الكشف ج ٣ ص ٢٣١ والبحر المحيط ج ٧ ص ٢١٤، ٢١٥ وروح المعانى ج ١١ ص ١٦٢ وفى ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٨٤٠ والتحرير والتنوير ج ١٠ ص ٢٩٧ ومن أسرار التعبير القرآنى ص ١٣٩.
^(٩٥)راجع من أسرار التعبير القرآنى ص ١٣٨.

أخلاقهم وفساد قلوبهم والمعنى: إذا ذهب العدو وانتهى القتال وحيزت الغنائم آذوكم بالكلام وخاصموكم بالسنّة ذرّة سليطة.

وفى هذه الآيه مقابلة بين أحوالهم وهذه المقابلة تظهر التغيير المفاجئ فى أحوالهم فهم متقلبون لا يثبتون على حال.

وفى قوله: "سلفوكم بالسنّة حداد" صورة بيانية تبين شدة آذاهم للمسلمين، فقد استعير السلق وهو فى الأصل التقطيع والتمزيق والإحراق للأذى والإهانة على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية والجامع شدة التأثير وحصول الأذى فى كل، ويجوز أن تكون الاستعارة فى "السنّة" حيث شبهت بالسيوف بجامع الأذى والتأثير فى كل وحذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو السلق على طريقة المكنية، وهذا التصوير القرآنى يدل على شدة كيد المنافقين وكثرة آذاهم للمؤمنين فى جميع أحوالهم فقد صارت ألسنتهم كالسيوف التى تمزق الجسد!!^(١٦).

وقد كشف عن كيدهم الشديد لهذا الدين تكرار لفظ "أشحة" فى قوله تعالى "أشحة عليكم" فقد وقع التكرار مناسباً غاية المناسبة لهذا السياق، لأنه يكشف عما فى نفوسهم من حقد وكره منعهم من تقديم أى خير لاتباع هذه الدين الجديد، فقد وصلوا إلى مرحلة سيئة من أمراض القلوب التى لأمل فى علاجها ولا خير يرتجى من ورائها.

^(١٦)يراجع روح المعانى ج ١١ ص ١٦٣ ومن أسرار التعبير القرآنى ص ١٤٠.

وَأَلْ فِي "الْخَيْرِ" لِلْجِنْسِ، إِنَّهُمْ شَحُوا بِكُلِّ جِنْسٍ الْخَيْرِ وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا قَادِرِينَ عَلَى تَمْيِيزِ أَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ لِيَقْدُمُوهُ إِلَى النَّاسِ^(٩٧).

ثُمَّ حَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِحُكْمِهِ الصَّادِقِ الَّذِي يَظْهَرُ حَقِيقَةُ قُلُوبِهِمْ وَهَذَا الْحُكْمُ فِيهِ عِزَّةُ الرَّبُوبِيَّةِ، لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَشْفِ عَنْ أَسْرَارِ الْقُلُوبِ وَمَعْرِفَةِ مَصِيرِ النَّاسِ إِلَّا خَالَقُهُمْ سُبْحَانَهُ قَالَ تَعَالَى: "أَوَلَيْكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" و"أَوَلَيْكَ" إِشَارَةٌ إِلَى الْمَوْصُوفِينَ بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْأَوْصَافِ السَّابِقَةِ وَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْإِشَارَةِ لَتَمْيِيزِهِمْ بِهَا وَلِبَيَانِ أَنَّهُمْ جَدَرَاءُ بِمَا بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِمَا وَرَدَ مِنْ أَوْصَافِهِمِ السَّابِقَةِ وَفِيهِ أَيْضًا بَيَانٌ لِبَعْدِهِمْ عَنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، وَفِي حُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ: "لَمْ يُؤْمِنُوا" كَشَفَ لِأَسْرَارِهِمْ وَفَضَحَ لِعُيُوبِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُوْهَمُونَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَأَنَّهُمْ مَعَهُمْ^(٩٨).

ثُمَّ صَوَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَدَمَ قَبُولِ أَعْمَالِهِمْ وَإِبْطَالَ ثَوَابِهَا بِقَوْلِهِ: "فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ" وَأَصْلُ الْحَبْطِ: أَنْ تَأْكُلَ الْمَاشِيَةُ فَتَكْثُرَ حَتَّى تَنْتَفِخَ بِطَوْنِهَا وَلَا تَخْرُجَ مَا فِيهَا فَتَمُوتَ^(٩٩).

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ مَا يُوْضِحُ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "وَأِنْ مِمَّا يَنْبَغُ الرَّبِيعَ مَا يَقْتُلُ حَبْطًا"^(١٠٠).

^(٩٧) إِرَاجَعِ الْبَحْرَ الْمَحِيطَ ج ٧ ص ٢١٤ وَرُوحَ الْمَعَانِي ج ١١ ص ١٦٣.

^(٩٨) إِرَاجَعِ التَّحْرِيرَ وَالتَّنْوِيرَ ج ١٠ ص ٢٩٨.

^(٩٩) تِرَاجَعِ الْمَادَّةَ فِي الْمَفْرَدَاتِ وَاللِّسَانِ.

وفى هذا التعبير القرآنى صورة بيانية بديعة حيث شبه إبطال الأعمال بالحبط الذى هو فى الأصل داء يصيب بطون الدواب حتى يقتلها بجامع عدم حصول النفع فى كل وتنوسى التشبيه واشتق من الإحباط بمعنى الإبطال أحبط بمعنى أبطل عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية وهذا التعبير القرآنى يصور أعمال المنافقين بالجيف الفاسدة المنتفخة التى تملأ الكون ضرراً وفساداً.

وكان من دلائل عزة الربوبية ورفعة الألوهية أن يختم الله الآيه بقوله: "وكان ذلك على الله يسيراً" وفى هذا بيان لسيطرة الله المطلقة وقدرته الغالبة فلا يقدر على إهاته أولئك الطغاة وأشباههم إلا قوى قادر لا يمنعه أحد عن فعل ما يريد والتصريح باسم الجلالة فى ختام الآيه وضع للظاهر موضع الضمير وفيه ما فيه من تربية المهابة فاسم الجلالة يشعر بالهيمنة والسيطرة على كل ما فى هذا الكون الفسيح^(١٠١).

يقول الزمخشري - رحمه الله - عن سر التعبير بـ "أحبط الله أعمالهم": "فإن قلت: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط قلت: لا، ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه فبين أن إيمانه ليس بإيمان وأن كل عمل يوجد منه باطل وفيه بعث على اتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من

^(١٠٠) إراجع فتح البارى ج ٣ ص ٣٨٣ وشرح أحاديث من صحيح البخارى ص ٢٤٤ إلى ص ٢٥٥.

^(١٠١) إراجع من أسرار التعبير القرآنى ص ١٤٣، ١٤٤.

غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباءً منثوراً^(١٠٢).

فالزَمَخْشَرى رحمه الله يرى أن أعمالهم باطلة في الأصل وغير مقبولة وأراد الله أن يظهر ويعلم بطلانها، ليتعلم الناس أن الأعمال لا تقبل إلا بالإيمان السليم.

٣- وفي قوله تعالى: "وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [سورة الحشر: ٩]

نرى أوصافاً جليلة للأتصار رضوان الله عليهم أجمعين، فهم الذين تبوءوا الدار أى: سكنوها وأقاموا بها، والمقصود بالدار دار الهجرة وهى المدينة المنورة والتعريف فيها للعهد، وفى هذا التعريف تنويه بشرفها فهى الجديرة بأن تسمى داراً^(١٠٣).

وتبوء الدار ظاهر. أما تبوء الإيمان فيحتاج إلى تأويل، لأنه لا يصح فى الظاهر أن يكون مفعولاً للفعل المذكور، لأنه ليس مكاناً فيتبوء.

(١٠٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٣١.

(١٠٣) يراجع روح المعانى ج ١٤ ص ٢٤٥ والتحرير والتنوير ج ١٣ ص ٩٠ وقد عقد الإمام البخارى فى صحيحه باباً تحت عنوان: "والذين تبوءوا الدار والإيمان" وروى فيه حديثاً يؤكد أن الآية نزلت فى الأتصار. يراجع فتح البارى ج ٨ ص ٤٩٩.

وقد ذكر المفسرون وجوها كثيرة فى بيان ذلك، أشهرها أن الكلام من باب عطف الجمل والتقدير: تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان فيكون كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً^(١٠٤).

والمأمل فى هذا النظم الشريف يدرك أن هذه الصفات خاصة بجماعة تفردت بصفات وبلغت إلى آفاق لولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس أحلاماً طائرة ورؤى مجنحة ومثلاً عليها قد صاغها خيال محلق^(١٠٥).

فعلى الباحث إذاً إن يراعى الخصوصية التى وجدت فى الأنصار وأن يدرك أن هذه الأوصاف لا يمكن أن تكون لغيرهم، لأنها أوصاف فريدة!.

إن تبوء الإيمان فيه صورة بيانية لطيفة، حيث شبه الإيمان بالمنزل الذى يسكنه الإنسان ويطمئن فيه بجامع الراحة والاستقرار والتمكن فى كل ثم حذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو التبوء على سبيل الاستعارة المكنية وإثبات التبوء للإيمان تخييل^(١٠٦).

وهذا التوجيه البلاغى أقرب الوجوه التى تصور حب الأنصار للإيمان، فهو وطنهم الذى تعيش فيه قلوبهم وتسكن إليه أرواحهم

^(١٠٤) إراجع الكشف ج ٤ ص ٨٢ ومفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٤٧٨ وتفسير القرطبى ج ١٠ ص ٦٧٤٤ والبحر المحيط ج ٨ ص ٢٤٥.

^(١٠٥) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٥٢٦.

^(١٠٦) إراجع حاشية الشهاب ج ٨ ص ١٧٩ وروح المعانى ج ١٤ ص ٢٤٥ والتحرير والتنوير ج ١٣ ص ٩٠.

ويجدون فيه الطمأنينة والأمان والراحة التى يجدونها فى ديارهم التى يسكنونها^(١٠٧).

ويجد المتأمل فى الجار والمجرور "من قبلهم" لطيفة تتعلق بمدح الأنصار، إنهم أحبوا الدين واطمأنوا إليه وسعدوا به كما أحبوا ديارهم التى عاشوا فيها وقد حدث لهم كل ذلك قبل هجرة المهاجرين إليهم.

إذا هم ليسوا بحاجة إلى من يعلمهم هذا الدين لأنهم مؤمنون عالمون بهذا الدين. فلو كانت الأمور تقاس بمقياس الظاهر من الدنيا فليس هناك فائدة تعود عليهم من هجرة أقوام يتوافدون عليهم كل يوم ليشاركوهم فى كل شئ مما يملكون.

وضمائر الجمع فى الآية "من قبلهم"، "مما أوتوا" يدل على أنهم أحبوا جميع إخوانهم المهاجرين ورحبوا بهم جميعاً ولم يكن الحب والترحيب خاصاً برسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ومن اللطائف البلاغية فى الآية قوله تعالى: "هاجر إليهم" فهم هاجروا إلى الأنصار وليس إلى المدينة والفرق واضح وكبير بين قولنا: هاجر إلى المدينة وبين قوله تعالى: "هاجر إليهم" وهذا وصف دقيق ومعبر عن حقيقة الأنصار فقد أدركوا أنهم الملاذ الآمن لإخوانهم المهاجرين.

^(١٠٧)يراجع فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٥٢٦.

فالهجرة إذا ليست لأرض مجردة من أهلها، إنما كانت الهجرة لأقوام لهم صفات معينة وقد شاء الله أن يكونوا في يثرب. ولو كان الأمر يتعلق بهجرة إلى أرض تبعدهم عن مكة لخرج المسلمون إلى أماكن أخرى قد تكون الأقرب أو الأسهل.

ثم وصفهم الله بقوله: "ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا" وهو وصف نادر إن لم يكن مستحيلاً في حياة الناس اليوم ومعناه كما ذكر الزمخشري: يعني أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء مما يحتاج إليه" (١٠٨).

واختيار "حاجة" دون غيرها من الألفاظ وإيرادها نكرة في سياق النفي ليعم نفي كل شيء يمكن أن تميل إليه النفس في هذا المقام صغيراً كان أو كبيراً.

والمعنى - والله أعلم بمراده - لا حاجة فلا وجدان لأنه لو كانت في نفوسهم حاجة لأدركوها وأحسوها وهذا ما يسمى: نفي الشيء بإيجابه كما في قول الشاعر: لا ترى الضب بها ينجر، وهذا الوصف دليل على طهارة قلوبهم وصفاء نفوسهم (١٠٩).

وعبر بالصدر على القلوب عن طريق المجاز المرسل بعلاقة المحلية أو المجاورة وفي هذا ما فيه من المبالغة في مدح سرهم الذي لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وهذه الآية المباركة تكشف عن فضيلة

(١٠٨) الكشف ج ٤ ص ٨٢.

(١٠٩) يراجع روح المعاني ج ١٤ ص ٢٤٦ وفي ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٥٢٦ والتحرير والتنوير ج ١٣ ص ٩٢.

معينة نالها المهاجرون دون الأنصار - رضوان الله عليهم جميعا - وقد عبر القرآن عنها بقوله: "مما أوتوا".

وهذه الخاصية لا تتعلق بعبء مادي من تقسيم الغنائم أو الفئى أو غير ذلك مما ذكره بعض المفسرين. بل هى تتعلق بالهجرة ذاتها.

فللهجرة مكاتها وشرفها فى الإسلام وهذه الفضيلة لم ينالها أحد فى تاريخ الإسلام غير أولئك العظماء الذين قال الله فيهم: "الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" [الحشر: ٨]

وقدّم المهاجرون فى قوله تعالى: "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ" [التوبة: ١١٧] وفى قوله "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ" [التوبة: ١٠٠] لهذا الشرف، ويدل على فضيلة الهجرة قول النبى (صلى الله عليه وسلم): "لولا الهجرة لكنت أمرا من الانصار". وبهذا كله احتج الصديق أبوبكر - رضوان الله عليه - على تفضيل المهاجرين وتعيين الإمامة فيهم^(١١٠).

ولعل التعبير بـ "أوتوا" دون أعطوا يؤكد هذا الشرف لما عرف من أن الإيتاء أعظم وأرفع من الإعطاء وقد راعى القرآن ذلك فعبّر بالإيتاء فى جانب القرآن لبيان عظمتة وعلو قدره قال تعالى: "وَلَقَدْ

(١١٠) يراجع البرهان للزركشى ج ٣ ص ٢٥٦.

آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [الحجر: ٨٧] وعبر بالإعطاء في جانب الكوثر قال تعالى: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" [الكوثر: ١] لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) وأمته يردون على الحوض ثم يرتحلون عنه إلى منازل العز في الجنان وهو مقام أعظم^(١١١).

ثم وصفهم الله بقوله: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" وحذف مفعول "يؤثرون" مراعاة للإيجاز للعلم به والتقدير: ويؤثرون المهاجرين. ويجوز أن يكون حذف المفعول تنزيلا للمتعدى منزلة اللازم لبيان حدوث الإيثار ووقوعه وأنه صار صفة لارمة لهم دون النظر إلى من يقع عليه.

والخصاصة تطلق في الأصل على خصاص البيت أي فروجه وفتحاته التي تكون بين عيدانه ويسمى بيت القصب أو الشجر خصا لما يرى من الخصاصة التي تكون فيه^(١١٢).

والمراد بالخصاصة في الآية: الحاجة والفقر والتعبير عنها بذلك مجاز مرسل علاقته المسببية أو اللزومية وفي هذا التعبير بيان لشدة حاجتهم للشئ الذي يؤثرون به إخوانهم المهاجرين وهذا التعبير يوحى بالمكاشفة والمصارحة التي حدثت بينهم فلم يوجد ما يكن إخفاؤه.

(١١١) راجع السابق ج ٤ ص ٨٥، ٨٦.

(١١٢) راجع الكشف ج ٤ ص ٨٢ ومفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٤٧٨ وص ٤٧٩ وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٦٧٥٠ والبحر المحيط ج ٨ ص ٢٤٦ وروح المعاني ج ١٤ ص ٢٤٦ وتراجع المادة في المفردات واللسان.

والتعبير بالمضارع "يحبون"، "لا يجدون" "يؤثرون" يدل على تجديد هذه الصفات فيهم وعدم توقفها فهي تتكرر في كل موقف.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" وهذه الجملة وقعت تزييلاً جارياً مجزئ المثل فى الاستقلال وهى تؤكد مفهوم الكلام السابق^(١١٣).

وقد نظمت هذه الجملة بأسلوب الشرط الذى تترتب فيه المعانى على بعضها وتبنى فيه النتائج على مقدماتها وهى أحكام قضائية مبنية على حكم ربانية.

وجاء التعبير القرآنى: "يوق شح نفسه" مناسباً لهذه الصفات العظيمة التى ذكرها الله تعالى للأتصار لأنه لا ينال هذه الصفات إلا سليم النفس رقيق الطبع، نقى الصدر والسريرة وقاه الله شح نفسه وهواه إلى صالح أمره.

وجاء "يوق" مبنياً للمفعول، للعلم بالفاعل لأنه لا يقدر على دفع شح النفس إلا الله سبحانه، وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها لا يزحزح عنها إلا بتوفيق الله لصاحبها^(١١٤).

وأشير إليهم بالبعيد فى قوله: "فأولئك هم المفلحون" لتعظيمهم وبيان رفعة درجاتهم، وعرف المسند بأل الجنسية لإفادة القصر، حيث

^(١١٣) يراجع روح المعانى ج ١٤ ص ٢٤٧ والتحرير والتنوير ج ١٣ ص ٩٤.

^(١١٤) يراجع الكشف ج ٤ ص ٨٢ ومفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٤٧٩ وروح المعانى ج ١٤ ص ٢٤٧.

قصرت صفة الفلاح على "أولئك" المشار بها إلى من يوق شح نفسه وهو قصر على جهة المبالغة لبيان أهمية هذه الصفة و"هم" ضمير فصل جاء لتوكيد القصر، لأن القصر مفهوم بتعريف الطرفين^(١١٥).

٤- وقوله تعالى: "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [التغابن: ١٦]

جاء بعد الحديث عن فتنة المال والولد الواردة في قوله تعالى: "إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...." [التغابن: ١٥]

وقد ارتبط قوله تعالى: "فاتقوا الله...." بالآية السابقة بفاء الفصيحة التي أفصحت عن شرط مقدر يعنى إذا علم ذلك فاتقوا الله ما استطعتم.

وهذا الآيه المباركة فيها أربعة أوامر هي: "اتقوا"، "اسمعوا"، "أطيعوا"، "أنفقوا" وقد رتبت هذه الأوامر ترتيباً بليغاً، فتقدم الأمر بالتقوى، لأن التقوى هي الأساس الذى تبنى عليه كل الأوامر التى بعدها، وهى السبب فى وجود ما بعدها.

والتقوى تتحصل فى القلب فإذا صلح القلب صلحت كل الجوارح فترى المرء التقى حريصاً على سماع ما يوعظ به، وإذا سمع أطاع الله فيما أمر به وفيما نهى عنه، ومن دلائل التقوى والسمع والطاعة الإنفاق فى وجوه الخير.

^(١١٥) يراجع تعريف المسند بأل فى دلائل الإعجاز ص ١٧٩ إلى ص ١٩٨ ويراجع علوم البلاغة للمراغى ص ١٢٢ والتحرير والتنوير ج ١٣ ص ٩٥.

والخطاب فى هذه الآيه للمؤمنين الذين ناداهم الله بقوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...." [التغابن: ١٤] والأوامر الأربعة فى هذه الآيه واردة للوجوب وتركها يدخل المرء فى باب الحرمة.

وهذه الأوامر موجودة فى المؤمنين المخاطبين بها وقد أمروا بها للحث على الاستمرار فيها والدوام عليها.

وجاء قوله تعالى: "خَيْراً لَّأَنفُسِكُمْ" مؤكدا للحث على الالتزام بها. ونصب "خيراً" على أنه مفعول لفعل مقدر دل عليه المذكور وتقديره: انتوا خيراً أو أنه نعت لمصدر محذوف تقديره: اتفاقاً خيراً، أو يكون مفعولاً به لـ "أنفقوا" ومنهم من أجاز أن يكون "خيراً" "خبراً" لكان المحذوفة التى وقعت جواباً للأوامر المذكورة فى الآيه^(١١٦).

وقد وردت تقوى الله فى هذه الآيه مقيدة بقوله "ما استطعتم" و"ما" مصدرية زمانية أى: مدة استطاعتكم وذلك يعم الأحوال والأزمان كلها^(١١٧).

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآيه ناسخة لقوله تعالى: "اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ" [آل عمران: ١٠٢] فحين نزلت هذه الآيه اشتد الأمر على القوم حتى ورمت أقدامهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تخفيفاً عليهم "فاتقوا الله ما استطعتم" فنسخت هذه الآيه آية "آل عمران".

^(١١٦) يراجع الكشف ج ٤ ص ١٠٦ وتفسير القرطبى ج ١٠ ص ٦٨٧١. وحاشية

الشهاب ج ٨ ص ٢٠٤ والفتوحات الإلهية ج ٤ ص ٣٦٨.

^(١١٧) يراجع مقى اللبيب ج ١ ص ٣٠٤.

وقد رد كثير من أئمة التفسير القول بالنسخ ورأوا أن القول به لا يصح هنا، لأن قوله تعالى: "حق تقاته" لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون لأنه فوق الطاقة والمقدرة، وعلى هذا الفهم لا يوجد النسخ والآية محكمة.

والظاهر - والله أعلم بمراده - أن قوله تعالى "ما استطعتم" ليس فيه تخفيف ولا تشديد ولكن فيه عدل وإنصاف، لأن المقصود بذلك عبادة الله من غير تقصير ولا إفراط وهى العبادة الممدوحة التى تظهر وسطية الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان^(١١٨).

ثم ذيلت الآية بقوله تعالى: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" وبنى الفعل للمفعول للعلم بالفاعل وهو الله تعالى، وأشير إليهم بالبعد لبيان بعد درجتهم وعلو مكانتهم. وفى الآية قصر صفة الفلاح عليهم وهو قصر على جهة المبالغة فى تحقق وصف المفلحين وكأنه نزل فلاح غيرهم منزلة العدم، وجاء "هم" لتوكيد هذا القصر^(١١٩).

وهذا الشرط مثل ما ورد فى ختام آية سورة الحشر السابقة، وقد وقع ذكر الشح فى الآية مناسباً غاية المناسبة للسياق والمقام، لأن هذه الصفات التى أمر الله بها تنقى النفس وتهذب الضمير وتنير

^(١١٨) يراجع مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٥٦٣، ٥٦٤ وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٦٨٦٩
وص ٦٨٧٠ والبحر المحيط ج ٨ ص ٢٧٦ ونظم الدرر ج ٨ ص ٢٠ وروح المعاني
ج ١٤ ص ٣٢٢ والتحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٨٧، ٢٨٨.
^(١١٩) يراجع نظم الدرر ج ٨ ص ٢٠ والتحرير والتنوير ج ١٣ ص ٢٨٩.

البصيرة فيتخلص المرء مما طبعت عليه نفسه وينغمس في طاعة
ربه.

الخاتمة

الحمد لله الذى أرشدنى إلى هذا البحث المبارك ويسر سبيله
وأعان على إتمامه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، وبعد:
ففى ختام هذه الرحلة الطيبة مع هذا البحث المبارك نجمل أهم ما أمكن
التوصل إليه فيما يأتى:

١- وردت مادة "بخل" اثنتا عشر مرة فى القرآن الكريم وجاءت مختلفة
الصيغة بما يناسب السياق ووقعت فى القرآن المدنى باستثناء موقع
واحد اختلف فيه وذكرنا مناسبة ذلك. وورد "الشح" مصدراً وجمعاً
فى خمسة مواضع فى القرآن الكريم ووقع فى القرآن المدنى وذكرنا
مناسبة ذلك.

٢- ذكر الباحث معنى "البخل" و"الشح" عند أئمة اللغة والتفسير،
والفروق الدلالية بينهما وظهر أن لكل لفظ دلالاته الخاصة ولا يقوم
لفظ مقام الآخر فى هذه الدلالة، وقد راعى القرآن الكريم ذلك.

٣- جاء البخل فى القرآن الكريم على بابيه واستعمل فى حقيقته من منع
انفاق المال ولم يستعمل مجازاً فى أى موقع ورد فيه وذكرنا ما
يؤيد ذلك من مقام الكلام وسياقه.

٤- ورد الشح فى سياق الحديث عن النفس وأضيف فى أكثر المواقع
إلى النفس لبيان أنه طبع أصيل فيها، وبنى الفعل "يوق" للمفعول
للعلم بالفاعل إذا لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه، وقصر الفلاح
على من وقى شح نفسه، لأن الشح رأس الحية كما قيل وهو أخطر

من البخل، لأنه يحمل النفس على فعل كثير من المصائب كما أنه سبب في وجود البخل.

٥- لكل كلمة في اللغة العربية دلالتها الخاصة وهذه الخصوصية في الدلالة تفيد في التعرف على المعنى الدقيق وظهر ذلك في تأمل دلالة "أوتوا" في آية سورة الحشر.

٦- كان من خصوصيات نظم "الشح" وأكثر مواقع البخل وروده على طريقة الشرط والجزاء وقد ذكرنا خصوصيات هذا الأسلوب وأن الجمل مهما طالت فيه فالمعنى المراد كالشئ الواحد، وهذا يجعل جملة الشرط والجزاء كالجملة الواحدة بل مثل الاسم المفرد في امتناع أن تحصل به وحده الفائدة كما ذكر الإمام عبدالقاهر في أسرار البلاغة، وذكرنا أن هذا النمط العالى من الأساليب يحتاج إلى كثير من البحوث الجادة التى تبرز أسرارها فى القرآن الكريم ولغة العرب.

٧- ذكر الباحث ما فطن إليه فخر الدين الرازى من الأحوال الإعرابية للأفعال المعطوفة على جواب الشرط ودلالة اتحاد الإعراب أو عدمه فى الكشف عن المعنى المراد.

وقد ورد فى هذا البحث كثير من اللطائف البلاغية التى يمكن التعرف عليها من خلال قراءته.

هذا والله نسأل أن يتجاوز عما وقع من سهو أو تقصير، وأن يحقق منه ما ينفع، ويجعله من الأعمال التى تشفع. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

- ١ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبى السعود ط دار إحياء التراث العربى ببيروت - لبنان.
- ٢ - أسباب النزول لجلال الدين السيوطى ط دار إحياء الكتب العربية. عيسى الحلبي.
- ٣ - أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجاني تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجى ط. مكتبة القاهرة.
- ٤ - الأطول للعصام ط الطبعة السلطانية ١٢٨٤ هـ.
- ٥ - البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى تحقيق الشيخ/ عادل أحمد عبدالوجود وآخرين ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٩٩٣ م.
- ٦ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ط دار التراث.
- ٧ - بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى تحقيق محمد على النجار ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ثالثة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.
- ٨ - بيان إعجاز القرآن الكريم للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق: محمد خلف الله ود/ محمد زغلول سلام ط دار المعارف ط الرابعة.
- ٩ - التبيان فى إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى ط مكتبة الدعوة بالقاهرة.

- ١٠- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط دار سحنون تونس.
- ١١- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ط دار التراث- القاهرة.
- ١٢- تفسير القرطبي ط دار الغد العربي ط أولى ١٩٨٨ م.
- ١٣- حاشية السيد الشريف على المطول بهامش المطول ط أحمد كامل سنة ١٣٣٠ هـ.
- ١٤- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ط دار صادر.
- ١٥- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ط دار إحياء الكتب العربية للبابلي الحلبي.
- ١٦- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر، ط، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠ م.
- ١٧- دلالة الألفاظ د/إبراهيم أنيس ط مكتبة الأنجلو المصرية ط السادسة ١٩٨٦ م.
- ١٨- الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار الكتب العلمية- بيروت.
- ١٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي تصحيح وضبط على عبد الباري ط دار الكتب العلمية- بيروت ط أولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٢٠- شرح أحاديث من صحيح البخاري للدكتور/ محمد أبو موسى ط مكتبة وهبه ط أولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- ٢١- شروح التلخيص ط المطبعة الأميرية ببولاق ط أولى ١٣١٨ هـ.

٢٢- صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان
ط أولى ١٩٢٩ م.

٢٣- علوم البلاغة للأستاذ/ أحمد مصطفى المراغى ط دار القلم.
بيروت.

٢٤- فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تحقيق
محب الدين الخطيب وآخرين ط المكتبة السلفية ط ثالثة ١٤٠٧ هـ.

٢٥- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لعمر بن
سليمان الشهير بالجمل ط البابلى الحلبي.

٢٦- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري تحقيق عماد زكى الباروى ط
المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

٢٧- فى ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب ط دار الشروق ط الثالثة
عشرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢٨- الكشف للإمام الزمخشري ط دار المعرفة بيروت- لبنان.

٢٩- لسان العرب لابن منظور المصرى ط دار المعارف.

٣٠- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لأبن عطية تحقيق
عبد السلام عبد الشافى، ط، دار الكتب العلمية.

٣١- المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازانى مطبعة أحمد كامل
١٣٣٠ هـ؟

٣٢- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصرى تحقيق محمد
محي الدين عبد الحميد، ط، صبيح.

٣٣- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي ط ونشر دار الغد العربي ط
أولى ١٩٩١م.

٣٤- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط- دار التحرير.

٣٥- المقتضب لأبي العباس المبرد تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ط
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.

٣٦- من أسرار التعبير القرآني د/ محمد أبو موسى ط، دار الفكر العربي
١٣٩٦ هـ، ١٩٧٦م.

٣٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي،
ط، دار الكتاب الإسلامي.